أسرار التقدم والتأخر

بين تنوع البشر واختلاف الثقافات



د. على عبد العزيز النفيلى





أسرار التقدم والتأخر

بين تنوع البشر واختلاف الثقافات

الطبعـــة الأولى

١٤٢٩ هـ - يونية ٢٠٠٨ م



٩ شارع السعادة - ابراج عثمان - روكسي - القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٤٥٠١٢٢٩ - ٢٤٥٠١٢٢٨ - ٢٢٥٦٥٩٣٩

المكتبة: ٢ شارع البورصة الجديدة - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٢٨٠٧١ - ٢٣٩١٢٠٧٢

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

أسرار التقدم والتأخر
بين تنوع البشر واختلاف الثقافات

د. على عبد العزيز النفيلى



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

النفيلى ، على عبد العزيز .

أسرار التقدم والتأخر بين تنوع البشر واختلاف الثقافات .

على عبد العزيز النفيلى .

ط١ . ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٨م

١٦٠ص؛ ١٧ × ٢٤سم .

تدمك 6 - 22 - 6278 -977 - 978

١ – التغير الثقافى .   ٣٠١,٢١

أ . العنوان .

رقم الإيداع ١١٢١٨ / ٢٠٠٨م

الترقيم الدولى I.S.B.N. - 978- 977- 6278 - 22 - 6

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مقدمة

لا شك أن الكثير منا، نحن العرب، فى الزمن الحالى يحسون بالإحباط ويشعرون أنهم يعيشون فى أزمة على مستوى الفرد ودوره فى المجتمع، وخاصة المشتغل بالعلم المهتم بقيمة مجتمعه، وهى أزمة على مستوى الدولة و الإقليم والوطن وهوانه على الآخرين، وأيضًا أزمة على مستوى العالم الذى نعيشه مع بدايات القرن الحادى والعشرين، حيث لايسمع الإنسان صوتًا أعلى من صوت القوة، ويسمع الشىء وعكسه من نفس المصدر ويهتز فى أعماقنا الكثير من القيم الإنسانية الرفيعة التى بناها البشر على مر العصور، ونتساءل: لماذا هذا ؟ لماذا نحن ننتمى لدول يصفونها تأدبًا بأنها نامية، ونعيش تحت سيطرة آخرين فى جوانب متعددة، ولا نستطيع حماية دمائنا وأموالنا. . !؟ ولماذا هم دول يصفونها بالمتقدمة أصحاب سيادة وهيمنة يفكرون ويتحركون ويبدعون فى شتى مناحى الحياة!؟ وما حقيقة التفسيرات التى يعرضونها هنا وهناك ؟ وما علاقة ذلك بالثقافة والعلم والعرق ؟ولماذا يوجد بشر أقوياء أغنياء وآخرون ضعفاء فقراء؛ على الأقل من الناحية المادية؟! .

تكررت فى العقود الأخيرة بين الناس مفردات ومصطلحات وتعبيرات محددة مثل«العرق والأعراق»، «والتميز العرقى»، «والإبادة العرقية» وكذلك «الثقافة»، «تنوع الثقافات»، «حوار الثقافات»، «صراع الثقافات» «تصادم الثقافات»، «تكامل الثقافات».

كما أن هدف المشغولين بأوطانهم ليل نهارهو موضوع التقدم والتطور والتنمية والتطوير، إن تداخل هذه المفردات مع بعضها البعض فى أحاديث الناس، بل وفى اجتهادات النخبة من مقالات وحوارات تزيد من غموض الوعى بمحتواها وعلاقاتها مما يصعب الإدراك السليم والفهم الواضح لأبعادها الأكاديمية لغويًا ومنطقيًا، وكذلك فى أبعادها التاريخية فى أرجاء المعمورة وانعكاسات كل ذلك على حياة الناس اليومية.

إن مفهوم العرق والثقافة والتقدم هو موضوعنا الذى سنجتهد فى إلقاء الضوء على جوانبه المختلفة فى هذا الكتاب.

إن الموضوعات التى سأتناولها صعبة ومعقدة وتحتاج إلى جهد كبير فى البحث والتحليل والاستقراء لمعارف متنوعة في تخصصات عديدة، لكن ما أقدمه فى هذه الصفحات ليس عملاً أكاديميًا صارمًا مثقلاً بالوثائق والمراجع، وإنما فى الأغلب هو تأمل وتصور فكرى مبنى على ما ترسب فى العقل من دراسات وقراءات مستفيضة فى تخصصات علمية عديدة، وبأكثر من لغة، أردت جمعها ملخصة فى عمل واحد، وأن أرافق القارئ فى التجول بين مختلف الرؤى، وفى جوانب كثيرة من البيولوچيا والثقافة لتساعدنا فى التعرف على مساحات شاسعة من المعارف يصعب الاطلاع عليها والإلمام بها في صفحات قليلة وزمن محدود، وأتصور أن القارئ لابد أن يكون ملمًا ببعض المعارف الأولية وليس بالضرورة أن يكون متخصصًا فى أحد هذه الفروع، فهدفى هو المثقف العام فى العالم العربى الذى يسعى إلى ربط معارفه وإلقاء مزيد من الضوء عليها. لعل ذلك يساعد فى إطفاء الظمأ لفهم ما يجرى حولنا، ويفتح الطريق للتنمية المتوازنة لمجتمعنا.

وهنا يقابلنا جهد آخر وهو ضرورة عرض المحتوى المعرفى لما نريد عرضه بلغة عربية سليمة وأسلوب سهل واضح.

وبالرغم من صغر حجم هذا الكتاب، إلا أنه يتعرض لقضايا كبيرة، ويثير العديد من الأسئلة الملحة على ساحتنا المعرفية...

ما هى أسباب تقدم بعض الأمم وتأخر بعضها الآخر؟

إن هذا الكتاب مجموعة معارف ملخصة فى صفحات قليلة، ترتكز على دراسات أكاديمية، ويعرض بأسلوب عربى سهل معلومات عن تخصصات علمية عديدة وضرورية لبناء العقول، نحن فى أشد الحاجة إليها دون إغفال لجذورها العربية. يفتح محتوى هذا الكتاب للقارئ العربى آفاقًا رحبة من المعارف، تزيده إحساسًا بقيمته وتعمق فهمه للإنسان وطبيعته وثقافته أينما وجد على هذا الكوكب، يبين للقارئ تنوع البشر فى الشكل والحجم واللون إلى شعوب وقبائل، وينير له الطريق لفهم اختلافهم

فى الثقافة وعناصرها العديدة من دين إلى لغة، ومن عادات وتقاليد إلى فنون وعلوم، ومن أفكار ومعارف وأفئدة إلى مشاعر وأحاسيس ووجدان.

يفتح لنا هذا المدخل الفريد ـ لربط العلوم البيولوجية بالعلوم الإنسانية، والثقافة والبحث عن العلاقات بين الأفكار والسلوك ـ بابًا لنطل منه على العلاقات بين البشر بمنظور بانورامى جديد، يؤكد حقيقة الأصل الواحد لجميع البشر، ويتيح المجال لعمق التسامح عند الاختلاف، بل ويدفع إلى التكامل بين المجموعات والثقافات لزيادة إنسانية الإنسان.

إن ظمأ العديد من المثقفين العرب للإجابة الشافية المقنعة عن السؤال المعذب الأليم ـ لماذا نحن هكذا اليوم؟ لماذا أرضنا مستباحة ودماؤنا نازفة وثرواتنا منهوبة؟ لماذا انتشار الأمية وعدم الميل إلى المعرفة؟ وانتشار الفقر المعنوى وإن توافر بعض المال مؤخرًا؟

وقد عرض هذا الكتاب مفهوم التقدم بشىء من التفصيل، وسلط الضوء على الإنسان كفرد من الناحية البيولوجية والصحية ومن الناحية المعنوية والثقافية، كما أشار إلى الإنسان كوحدة بناء مجتمع، وكيف يمكن الحكم على هذا المجتمع بالتقدم أو التأخر؟ وما هى المحددات التى يبنى عليها ذلك الحكم؟ لقد تم ذكر مختلف الجوانب والمحددات من صحية واقتصادية وثقافية كمدخل للقارىء المهتم؛ لكى يسعى ويبحث ويقرأ بتوسع أكثر.

* * *

أتقدم بالشكر لكل من عاون وشجع على إتمام ونشر هذا العمل وظهوره للنور.

أهدى هذا الكتاب إلى روح زوجتى الراحلة أليسا، والتى لولاها ما كانت مظاهر وأسباب تنوع البشر واختلاف الثقافات هى موضوعات حديثنا اليومى، ودافعًا لمزيد من الدراسة والبحث.

ونرجو من الله التوفيق.

على النفيلى

elnofely@hotmail.com

البـــاب الأول

تـنوع البشـر .. العـرق والأعـراق

- الفصـل الأول: أصل الإنسان المعاصر
- الفصل الثانى: كيف نشأت الأعراق ؟
- الفصل الثالث: تصنيف الأعراق

الفصل الأول

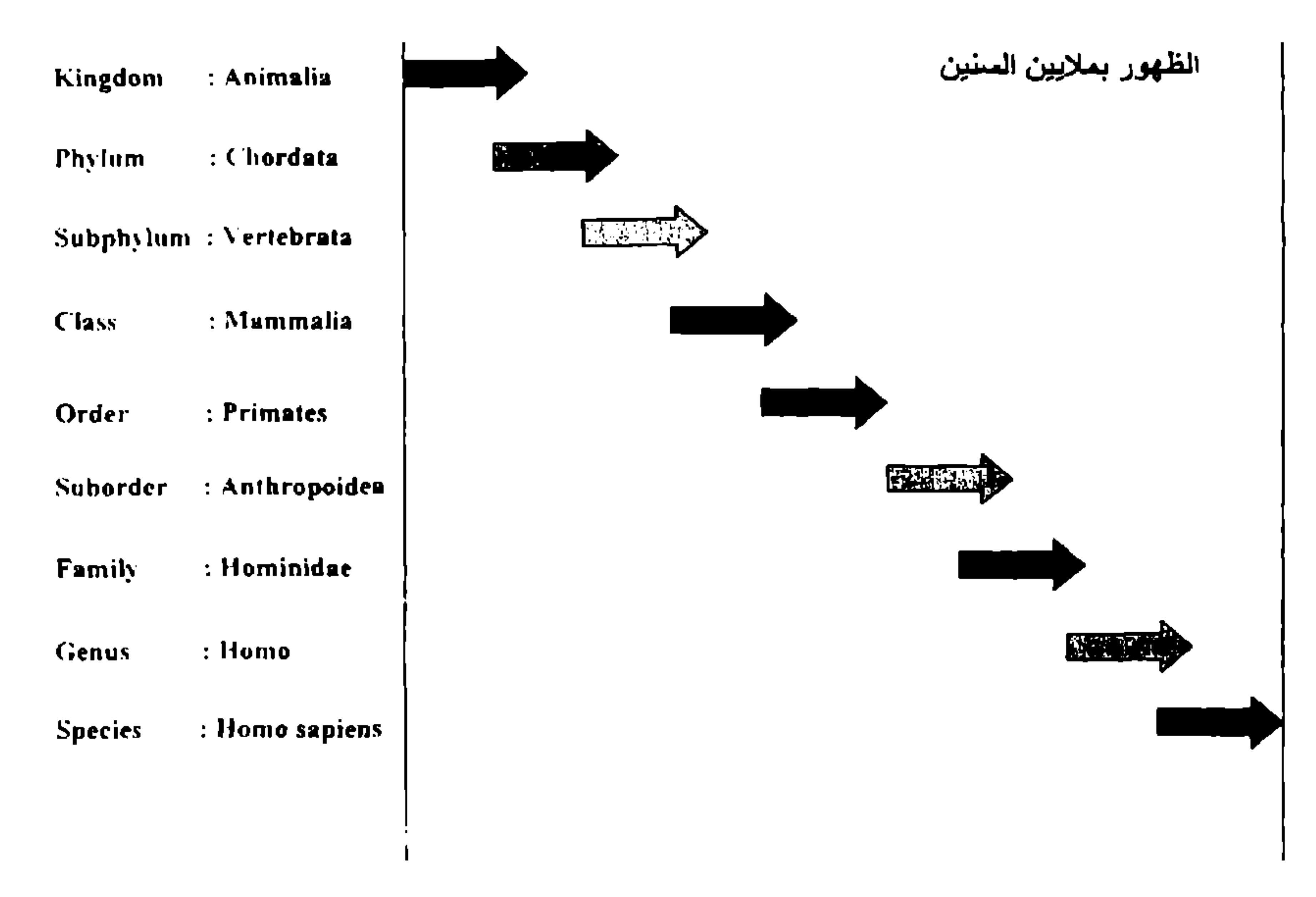
أصل الإنسان المعاصر

الإنسان المعاصر كائن حى يصنفه علماء التصنيف من الناحية البيولوچية الحياتية على قمة المملكة الحيوانية كنوع متميز من الكائنات الحية، يسمى الإنسان العاقل«Homo Sapiens» (شكل رقم ١).

والإنسان ككائن حى يتميز بيولوچيًا بأنه ذو دم حار، وله هيكل عظمى ويتنفس الهواء عن طريق الرئتين، ويلد صغاراً ويرضعهم عن طريق الثدى. وإذا دققنا فى مواصفات جسم الإنسان أكثر، نجد أنه ينتمى إلى رتبة الرئيسيات التى تتصف بحجم دماغ أكبر وأيد ماسكة بها خمسة أصابع تنتهى بأظافر وليس مخالب . . . وإذا دققنا أكثر فإننا نجد أن الإنسان يتشابه مع بعض أنواع الرئيسيات الحالية مثل البونجيديا (الشمبانزى) فى التواصل مع الآخرين، وفى الملاحظة والتقليد وفى التعبير عن الفرح والحزن، مما يجعل علماء البيولوچيا يضمونهم معًا فى أسرة واحدة يسمونها «الهومونوديا»، وإن تفرقوا فى الماضى البعيد إلى أجناس مختلفة.

فهل ما نراه اليوم هو محطات معاصرة لخطوط ارتقاء وتطور تبدو حاليًا متباعدة وإن كانت جميعها قد بدأت من نقطة انطلاق واحدة فى الماضى السحيق؟!

إذا حاولنا التعرف على أجدادنا وأصولهم ومنشئهم وكيف كانوا، فما مصادر المعرفة ؟



شكل رقم (١): التصنيف البيولوجى للإنسان العاقل المعاصر (Homo sapiens) .

إما أن تكون مصادر المعرفة عن الأجداد هو ما يتناقله الناس مع الزمان من قصص وأساطير . . وإما ماذكرته الأديان وسجل فى الكتب السماوية من نصوص، وهو ما يؤخذ إيمانًا وتصديقًا دون تأويل أو تفسير من بشر مجتهدين حسب معارفهم فى زمانهم . . . وإما من مصادر علمية تخضع للمنطق العقلى، ويقام على فروضها ونظرياتها الدليل والبرهان، وتقيم نتائجها بالتجريب والمطابقة مع الواقع، بما يؤدى إما إلى التحقق وإما إلى التحفظ وإما إلى الإنكار وبنفس أساليب المنطق العقلى. ومع إيمانى بالمصادر الدينية، فإنى سألتزم هنا بالمصادر العلمية فقط.

تعتبر المعارف المنقولة شفاهةً أو كتابةً من المصادر الموضوعية المعبرة، لكن ظاهرة الكتابة تعتبر ممارسة حديثة فى تاريخ الإنسان، كما أنه لا يوجد تسجيل شفهى للأحداث الماضية البعيدة، وعلى العلماء بخصوص أصل الإنسان فى ذلك الزمان البعيد أن يرجعوا إلى دراسة بقايا البشر من الأنسجة الصلبة (العظام أو الأسنان) وبقايا معاصريهم من أشباههم فى تلك الأزمان إذا كانت قد حفظت فى تراب الأرض وأمكن العثور عليها ولم تتحلل وتتلاشى، أو أن يلجئوا إلى التنقيب والحفر، ودراسة ما تركه لنا الأسبقون من أدوات ومواد ومخلفات، وآلات وآثار تدل على ممارستهم للعمل الثقافى، وإذا ثبت أنهم مارسوه فإننا نقول أنهم بشر وأجداد لنا .

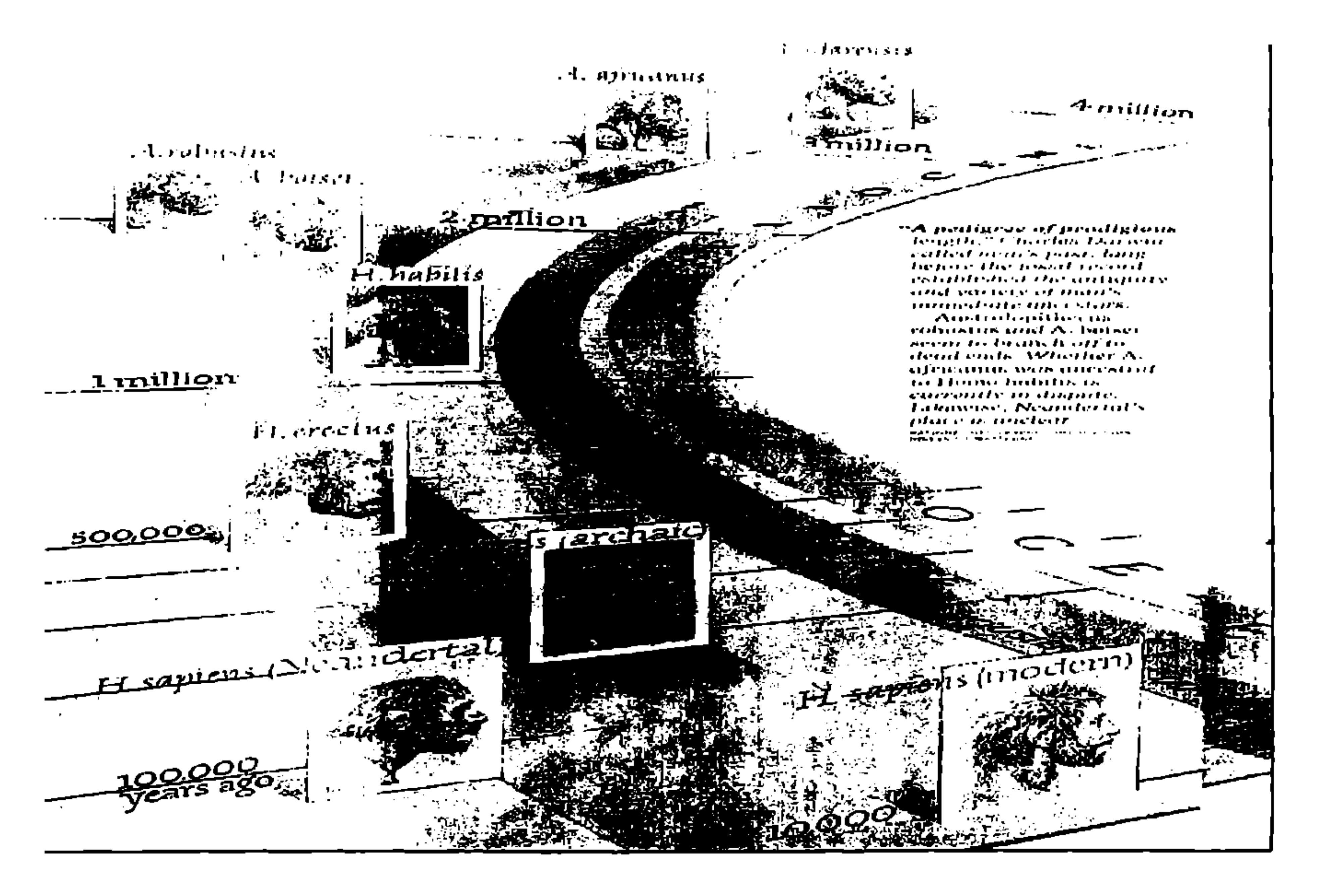
كان من نتيجة تجميع بقايا العظام والحفريات أن قام علماء البيولوچيا المهتمون بدراسة نشأة الإنسان بعمل جدول زمنى لتلك البقايا والحفريات عن طريق دراسة المواصفات الچيولوچية لطبقات الأرض التى وجدت بها تلك الحفريات والتأريخ لزمن تكوينها، وكذلك دراسة بقايا الأحياء القديمة الموجودة فى تلك الطبقات وتصنيفها والربط بين أنواعها وعلاقة هذه التصنيفات بالزمن، وكذلك الدراسة الثقافية للأدوات والآلات ومواد تصنيعها ومدى تطورها مع الزمن، ثم ربط هذه الدراسات فى تلك المجالات الثلاثة (الباليانتولوچيا [*] التشريح المقارن - الثقافة) ونتائجها مع بعضها البعض، حتى يمكن تتبع المواصفات التشريحية لبقايا العظام وكيفية تحورها أو تغيرها إلى أن أصبحت ما نراه الآن.

(*) الباليانتولوچيا : علم الأحياء والحياة القديمة وما بقى منها فى طبقات الأرض كأحافير متحجرة.

يمكن تلخيص الدراسات العلمية التى تمت فى هذا المجال، فنقول أنه تم تقسيم جميع الحفريات المشتركة فى مواصفات عائلة الهومونيديا (البشر وشبيهات البشر) إلى ست مجموعات يمكن ترتيبها زمنيًا من الأقدم، إلى الأحدث كما فى الشكل رقم(٢)

تتنوع النظريات عن الأصل البيولوجى للإنسان المعاصر، لكن معظم الآراء تتفق على نظرية الأصل الواحد (Monogenic theory) وأن جنس البشر (Genus Homo) (شكل رقم ٣) أحد فروع عائلة الهومونيديا، نشأ فى إفريقيا وتحرك بعض أفراده شمالاً منذ نحو مليون سنة وعبر سيناء وغرب آسيا، ثم اتجه إلى منطقة القوقاز فى جنوب شرق أوروبا، ثم أيضًا إلى شرق آسيا (انظر شكل ٤) وانعزلت كل مجموعة فى بيئتها الخاصة وأخذت فى التحور إلى أن نشأت العناصر البشرية وفروعها كما نراها اليوم.

رغم وجود صفات مشتركة تجمع كل البشر المعاصرين فى نوع واحد قابل للتزاوج بين أفراده وإعطاء نسل قابل للتكاثر والاستمرار، فإن التنوع فى الشكل والوظيفة والسلوك داخل هذا النوع حقيقة واقعه، فلا يوجد اثنان من البشر متطابقان تشريحيًا وفسيولوجيًا اللهم إلا التوائم المتماثلة من بويضة مخصبة واحدة، وكلما زادت المسافة المكانية والزمانية بين فردين زادت الفروق (فى الأغلب الأعم) وسهل التمييز البيولوچى بينهما، وقد يكون إنسان كرومانون (Cromagnon) الذى وجدت بقاياه فى أحد الكهوف فى منطقة كرومانون بجنوب غرب فرنسا، هو أقدم ممثل للإنسان العاقل الحالى أمكن العثورعليه (على الأقل فى أوروبا)، وقد يكون عاش فى نهاية العصر الحجرى القديم منذ حوالى خمسين ألف سنة، ولو أن بقايا «الإنسان العاقل» فى تلك الأزمان لم تكن متماثلة من الناحية التشريحية فى مناطق العالم المختلفة، لكن العلماء المختصين يقولون بأن الأعراق البشرية المعاصرة من زنوج وقوقاز ومنغول، لم تتميز بوضوح إلا فى أثناء العصر الحجرى الوسيط والحديث؛ أى خلال العشرين ألف سنة الأخيرة.



A. robustus
A. boisei
A. africanus
A. afarensis
4 million
3 million
2 million
H. habilis
1 million
H. erectus
500,000
H. sapiens (archaic)
H. sapiens (Neandertal)
H. sapiens (modern)
100,000 years ago
10,000
"A pedigree of prodigious length," Charles Darwin called man's past, long before the fossil record established the antiquity and variety of man's immediate ancestors.
Australopithecus robustus and A. boisei seem to branch off to dead ends. Whether A. africanus was ancestral to Homo habilis is currently in dispute. Likewise, Neandertal's place is unclear.



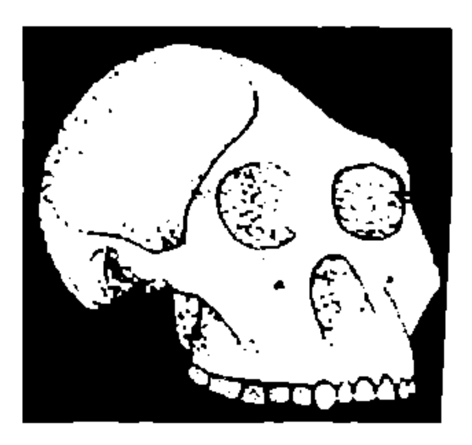
رسم توضيحى ل Homo erectus و Homo habilis

كل رقم (٢)، نظرية الأصل الواحد ـ جنس البشر (Genus Homo)

أحد فروع عائلة الهومونيديا الذى ظهر فى إفريقيا

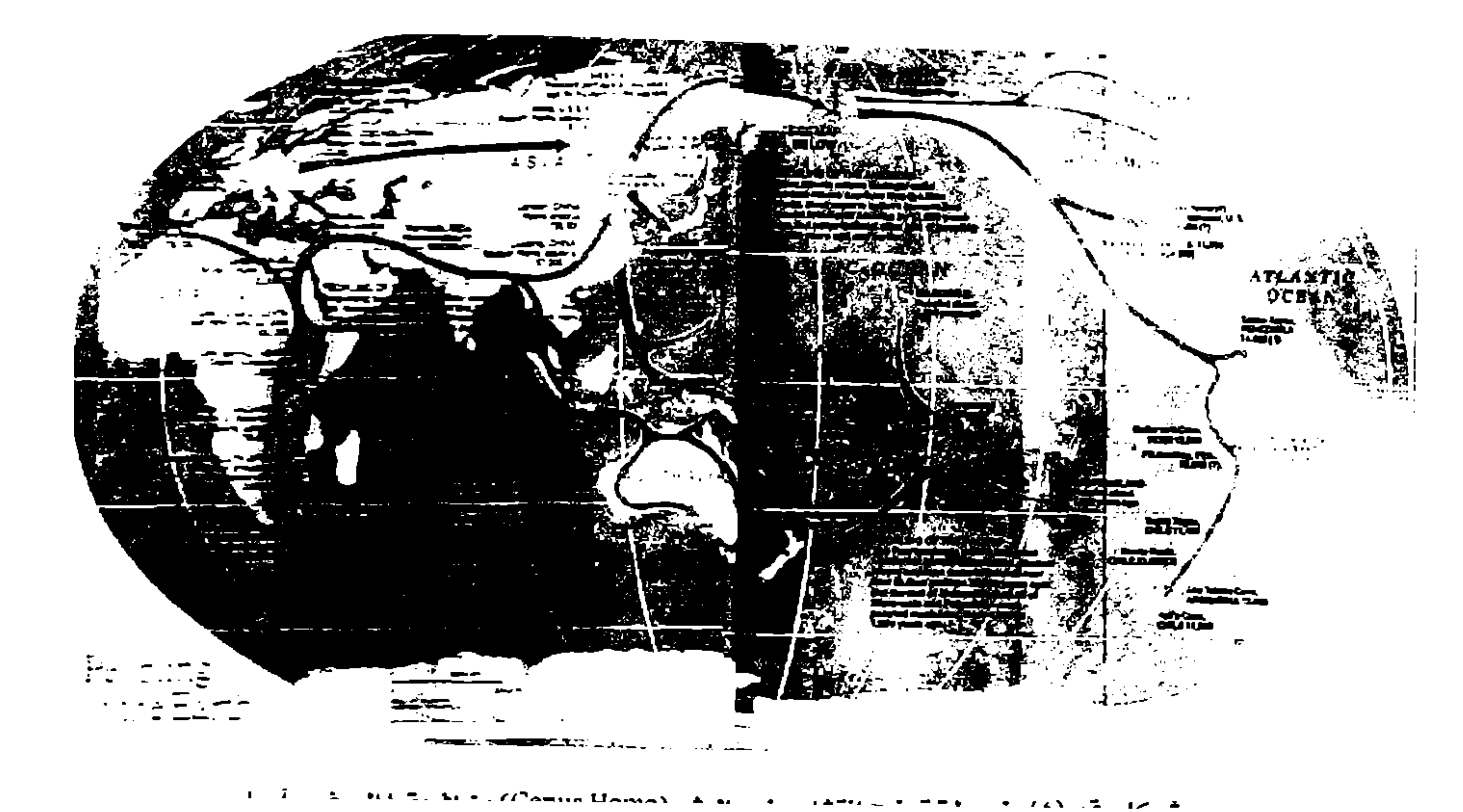






حفريات عظام جمجمة ل Homo erectus

تابع شكل رقم (٢)


ASIA
ATLANTIC
OCEAN

الفصل الثانى

كيف نشأت الأعراق ؟

يتجمع أفراد النوع «الإنسانى العاقل» المعاصر فى مجموعات؛ تشترك كل مجموعة فى بعض الصفات التى تميزها عن الأخرى، وقد تسمى تلك المجموعات بالعناصر البشرية أو السلالات أو الأعراق.

اتفق العلماء المختصون على أن السمات التى يمكن أن تستخدم فى تقسيم النوع الإنسانى إلى أعراق أو عناصر لا بد أن يكون لها مواصفات محددة كالآتى :

١ـ أن تكون الصفة فيزيقية وليست معنوية أو نفسية؛ أى أن تكون صفة محسوسة يمكن التعرف عليها بالحواس كالشكل والوظيفة والتركيب الكيميائى، وليست العظمة والكبرياء بصفات فيزيقية.

٢ـ أن تكون الصفة وراثية؛ أى أنها تنتقل من جيل إلى جيل عن طريق المادة الجينية (DNA) وليست تكيفًا أو مواءمة مع ظروف بيئية مؤقتة.

توجد المادة الجينية داخل نواة كل خلية من خلايا الجسم على شكل أجسام كروماتينية تسمى الكروموسومات. وعدد الكروموسومات فى نواة كل خلية بشرية ٢٣ زوجًا (وأحيانًا ٢٤ زوجًا) نصفهم من الخلية التناسلية الذكرية، والنصف الآخر من الخلية التناسلية الأنثويةويتم اتحادهما فى أثناء الإخصاب، والكروموسوم عبارة عن شريط حلزونى مزدوج من وحدات المادة الجينية المرتبطة ببعضها البعض.

وحدات المادة الجينية تسمى النيوكليتيدات أو النويدات (Nucleotides)، وتتكون كل وحدة من ثلاثة مكونات؛ جزىء سكر خماسى وجزىء من الفوسفات وقاعدة أزوتية (كما فى الشكل رقم ٥). وهناك أربعة أنواع من القواعد الأزوتية.

يتكون الكروموسوم من شريطين متقابلين من النويدات العديدة بحيث ترتبط كل قاعدة أزوتية فى أحد الشريطين بقاعدة أزوتية فى الشريط الآخر بروابط هيدروجينية، ويسمى كل زوج من النويدات على الشريط المزدوج بالزوج القاعدى (Base Pair)، وعلى ذلك يأخذ تشكيل المادة الجينية شكل السلم، ولكنه لولبى ملفوف (انظر شكل رقم ٦).

ومن المعروف حاليًا أن المادة الجينية فى نواة خلايا الجسم البشرى تنتظم فى حوالى ثلاثة مليارات من الأزواج القاعدية، وتمثل كل ثلاثة أزواج قواعد متجاورة معًا حامضًا أمينيًا واحدًا، و قد تم التعرف على عشرين حامضًا أمينيًا حتى الآن.

إذا افترضنا أن الأحماض الأمينية هى الحروف فإن البروتينات هى الكلمات، ورغم أن الحروف محدودة فالكلمات غير محدودة العدد حسب الحروف الداخلة فى تركيبها وعددهاوترتيبها.

إذن ما الجين أو المورث؟

الجين هو ذلك الجزء من الكروموسوم الذى يؤدى إلى تكوين بروتين معين، فهو شفرة تؤدى إلى تكوين البروتين وليس هو البروتين ذاته.

الجين قد يتكون من عدد قليل من المجموعات الثلاثية للقواعد الأزوتية(بمعنى أنه شفرة لعدد قليل من الأحماض الأمينية)، أو من عدد كبير من هذه المجموعات حسب نوع البروتين الذى ينتج عنه). (يتراوح العدد بين عدة آلاف وعدة مئات الآلاف من المجموعات الثلاثية). ومواصفات الكائن الحى هى ترجمة للبروتينات الداخلة فى تكوينه من ناحية نوعها وعددها وترتيبها.

وقد أمكن التحقق من وجود حوالى ثلاثين ألف جين فاعل يحددون بناء جسم الإنسان. والاختلاف بين الأفراد فى المواصفات الفيزيقية وارد نتيجة الاختلافات فى

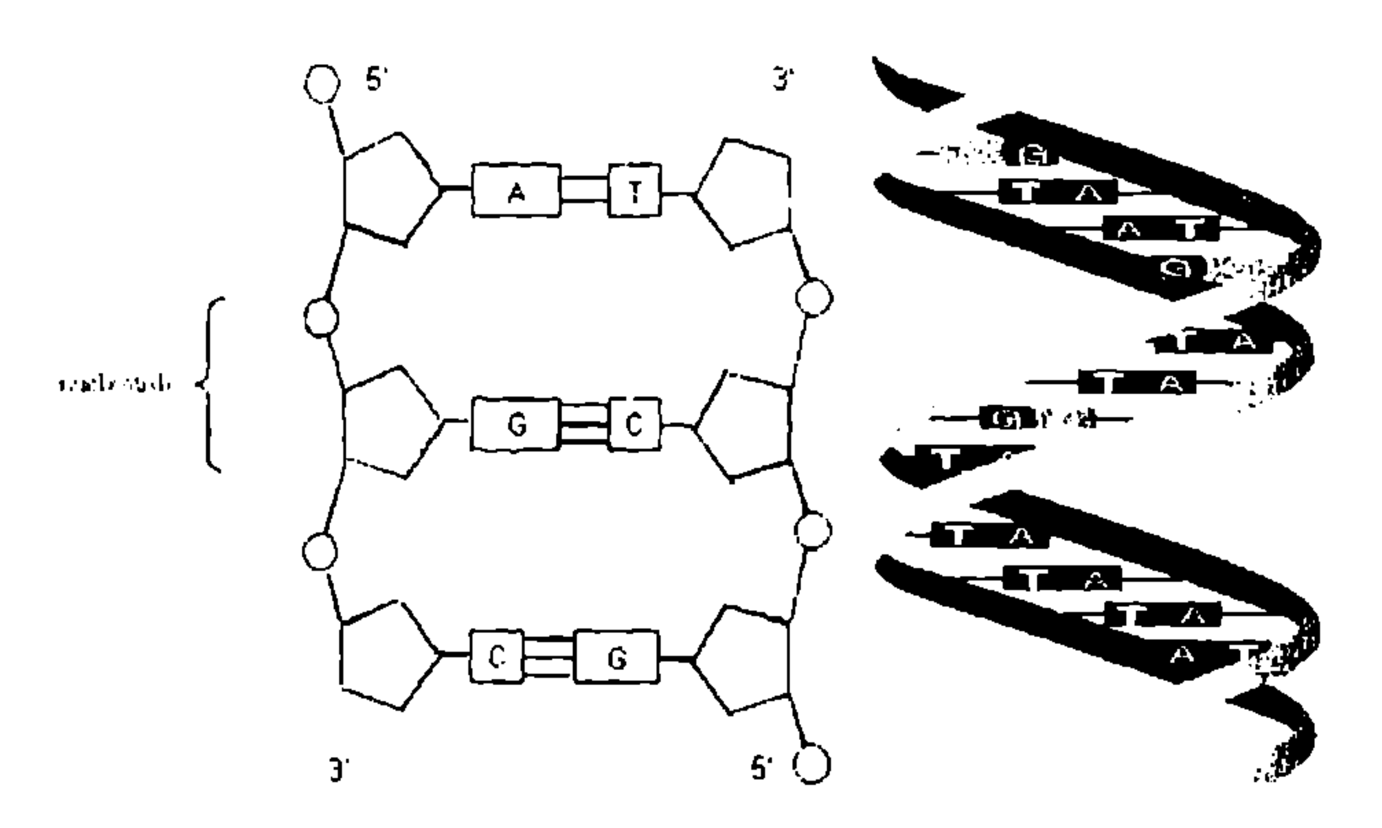
Phosphate group

Deoxyribose

G

Base

شكل رقم (٥)، تركيب النيوكليتيدة زوحدة تكوين المادة الجينية "DNA")



شكل رقم (٦)، شكل وتركيب جزئ DNA.

بناء الچين الواحد المسئول عن صفة محددة كلون الجلد مثلاً، والاختلافات قد تكون فى زيادة أو نقص أو اختلاف ترتيب القواعد فى الچين الواحد، أو قلة نشاط فى منطقة فاعلة من الكروموسوم أو زيادة نشاط فى منطقة ساكنة . . أوغير ذلك، وهذا يؤدى إلى اختلافات فى البروتينات الناتجة، وبالتالى فى المواصفات التى تحددها تلك البروتينات.

٣ ـ أن تكون هذه السمة التى تميز بين الأعراق موجودة فى الغالبية العظمى من أفراد المجموعة وليس بالضرورة فى جميع الأفراد.

٤ ـ أن تكون هناك أكثر من سمة مشتركة فى العرق الواحد؛ أى أن التمييز بين الأعراق لا يكون بناءً على سمة واحدة، بل على مجموعة متلازمة من السمات .

٥ ـ إذا تمت المقارنة بين أفراد من مجموعتين، فيجب أن يقارن الذكور بالذكور والإناث بالإناث، وأن تكون من فئة عمرية واحدة، أى الأطفال بالأطفال والكهول بالكهول.

يعتقد الكثير من العلماء بأن جنس البشر منتصب القامة (Homo Erectus)، الذى خرج من إفريقيا منذ حوالى مليون سنة وانتشر على سطح الأرض، قد واجه ضغوطًا بيئية متنوعة فى الأماكن التى وصل إليها، ومر جسده فى الماضى بمراحل من التحور والتطور بالانتخاب، من أجل البقاء فى تلك البيئة الخاصة إلى الزمن الذى حددوه بخمسين ألف سنة سابقة من الآن، حيث اكتمل التطور الفيزيقى للمخ، ووصل البشر إلى مرحلة صنع الأدوات والآلات من الحجارة والعظام والأخشاب والريش والجلود. . . وغير ذلك مما هو موجود فى بيئتهم، واستخدامها من أجل البقاء، أى أن المخ البشرى وصل إلى منتهاه من حيث الحجم والشكل وتفاصيل البناء، ومنذ ذلك الحين بدأت مرحلة استخدام هذا المخ والتعرف على الطاقات الوظيفية الكامنة فيه، وبدأت مرحلة التطور الثقافى للإنسان العاقل منذ ذلك الحين.

ومن المعروف أن هناك ثلاثة عوائق رئيسية تحدد حركة البشر وتمنع الاختلاط بين الناس، وهى العوائق الجغرافية ثم البيولوچية ثم الثقافية. وفى قديم الزمان، كانت العوائق الجغرافية من جبال وصحارى ومحيطات وبحار وغيرها تحد مجال الحركة

وتعزل المجموعات البشرية والقبائل فى إطار جغرافى محدود، مما أدى إلى تغيرات ولو محدودة فى البناء الچينى لتلك المجموعات نتيجة لعدة عوامل منها:

١ - الطفرات (التغيرات المفاجئة) فى تركيب ووظيفة الچين نتيجة عوامل بيئية.

٢ - انتخاب الطبيعة لطفرة معينة فى زمن معين تكون أكثر ملاءمة للبقاء فى بيئة معينة ويتم تثبيتها فى البناء الجينى للأفراد وأجيال الخلف، أو من ناحية أخرى عدم ملاءمة الطفرة للبقاء ومن ثم فناء الفرد .

٣ - اختفاء بعض الچينات نتيجة الانعزال وعدم تزاوج أصحاب تلك الچينات فلا تنتقل من جيل سابق إلى جيل لاحق.

٤- التزاوج التفضيلى نتيجة لزيادة الوعى الثقافى مما أدى إلى تثبيت وزيادة مواصفات معينة يفضلها الأفراد.

* * *

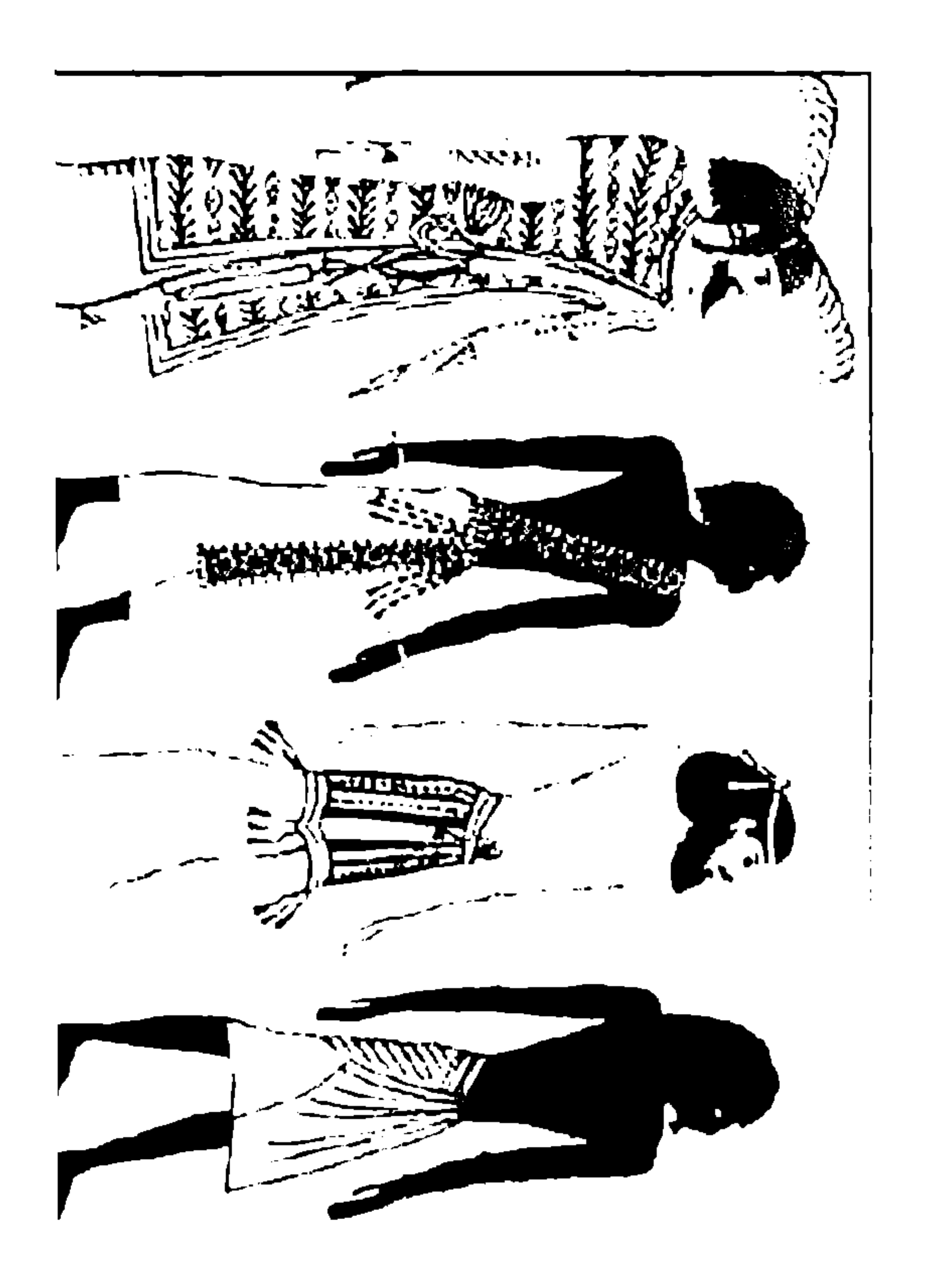
الفصل الثالث

تصنيف الأعراق

يرجع تصنيف الأعراق إلى زمن بعيد، حيث وجدت لوحة جدارية فى التراث المصرى القديم (مقبرة سيتى الأول) مرسوم عليها أربعة أنواع من البشر، يختلفون فى لون جلودهم وأشكالهم وملابسهم (شكل رقم٧). وتكلم ابن سينا وابن خلدون عن اختلاف أشكال البشر تبعًا لجو الإقليم وحره وبرده، وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى نشط الأوربيون فى تصنيف البشر بيولوچيًا على أسس علمية أشمل وأعمق.

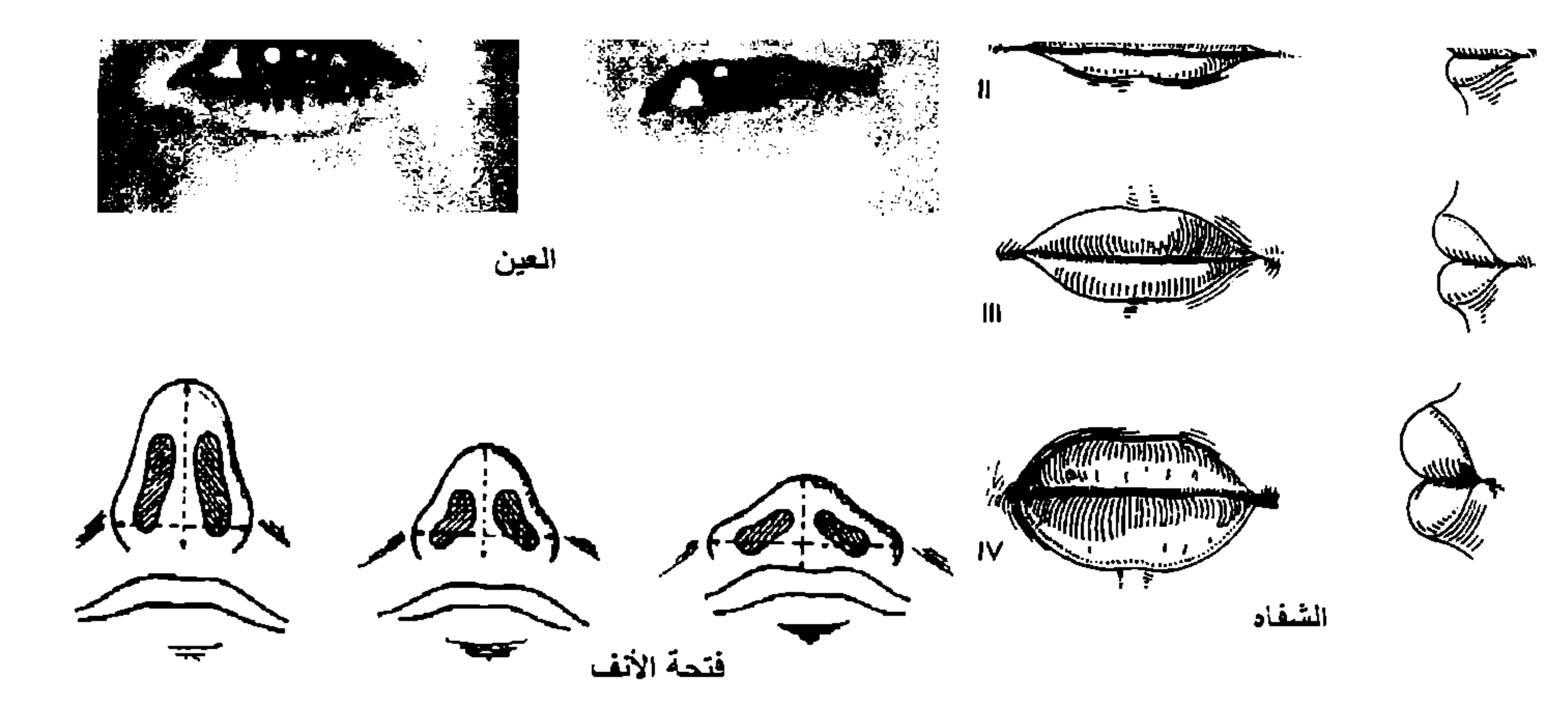
يقسم علماء الأنثروبولوچيا الأعراق البشرية إلى ثلاثة عناصر رئيسية، الإفريقية والقوقازية والمنغولية (انظر شكل رقم ٨)، وينقسم كل عنصر من هذه العناصر إلى فروع أولية وأخرى ثانوية وهكذا . . وتبنى هذه التقسيمات على مواصفات تشريحية وراثية المنشأ مستوفية للشروط التى سبق ذكرها، ومنها لون الجلد ولون الشعر ومواصفاته، لون العين، شكل فتحة العين وسمك الجفون، حجم الأنف ومواصفاته، ودرجة بروز الفكين، شكل وحجم الشفاه . . . وغير ذلك. (انظر شكل رقم٩)

مع اختراع العجلة واستخدام الدواب وركوب المياه فى الانتقال، زاد مجال الحركة وبدأت المجموعات البشرية المنعزلة والمتميزة تشريحيًا فى التعرف على بيئات جديدة وأناس آخرين ذوى مواصفات فيزيقية مختلفة، ومع زيادة حركة البشر واختلاط المجموعات بيولوچيًا ، ظهر ما يسمى بظاهرة انتشار الچينات (gene flow)، وهذا يعنى أن الچينات التى انتخبت فى بيئات معينة انتشرت فى بيئات أخرى ، وتم إضافة چينات جديدة واستبدال





شكل رقم (٨): الأعراق البشرية الثلاثة: المنغولى - القوقازى - الإفريقى



II
III
IV
الشفاه
العين
فتحة الأنف

الجديدة بالقديمة فيما يسمى بالوعاء الچينى الخاص بمجموعة ما . ومن هنا اختفى تدريجيًا ما يمكن أن نسميه نقاء العرق وظهرت الفروع العديدة والقبائل المتعددة .

ويمكن أن نتوقع أنه منذ ألف عام مثلاً ، لم تكن هناك حدود إدارية بين البشر أو جوازات سفر ، كما نرى اليوم ، وكان الإنسان يتنقل من مكان إلى آخر ، إن أراد واستطاع ، وأخذ العائق الجغرافى تقل سطوته شيئًا فشيئًا ، رغم أن العائق البيولوچى من ناحية اختلاف الشكل الفيزيقى ، والعائق الثقافى من ناحية اختلاف العادات والسلوك ، ظلا يحدان من الاختلاط البيولوچى بين أفراد المجموعات المختلفة .

إن المشاهد لسكان سطح الأرض من البشر فى بداية القرن الواحد والعشرين ، يجد أن الاختلاط بين الأعراق قد زاد بدرجة واضحة سواء فى العالم القديم (إفريقيا وأوروپا وآسيا) أو فى العالم الجديد (باقى الكوكب المسكون) ، وأن قمة الاختلاط تبدو صريحة فى الأمريكتين وأستراليا ؛ مما أدى إلى ظهور فروع عرقية جديدة كالزنوج الأمريكيين مثلاً (خليط من الإفريقيين والأوروپيين) أو الهيسپانك (خليط من الإسپان والهنود الحمر) ، وكان الاختلاط البيولوچى قسرًا أو طوعًا نتيجة لعدة عوامل ؛ منها التكنولوچية كسهولة الانتقال ، أو الثقافية كظواهر العبودية والاستعمار والمساواة .

عندما يولد المولود اليوم ، يتجمع حوله الأهل والأصدقاء للتعرف على ملامحه ويتبارون فى تحديد أى الوالدين يشبه ! الأم أم الأب ؟ الجد أم الجدة؟وهذا يعنى أن المولود الجديد يحمل صفات فيزيقية خاصة تجعله ذاتًا متفردة بجانب صفات أخرى تحدد انتماءه لأسرة معينة ذات صفات مميزة بجانب صفات أخرى تحدد العرق ، فمن يولد لأسرة صينية يشبه الصينيين على العموم ومن يولدلأسرة زنجية يحمل صفات الزنوج . . . وهذا طبعًا بجانب كونه بشرًا يحمل صفات النوع .

كيف يمكن فهم ذلك بمضمون وراثى چينى؟

تبين الدراسات الحديثة عن الچينوم البشرى أن حوالى ٩٩ , ٩٩ ٪ من أزواج القواعدفى المادة الچينية (٣ مليارات زوج قاعدى)متماثلة فى التركيب والترتيب فى جميع أفراد النوع الإنسانى المعاصر (من المفترض أن هذه الچينات قد تم تطورها وانتقاؤها وتثبيتها منذ ملايين السنين[*] كبناء چينى مميز للنوع يسمح بالتزاوج بين أفراده

(*) يفترض أن الإنسان منتصب القامة (سلف الإنسان المعاصر) الذى انتشر من إفريقيا إلى أجزاء المعمورة منذ مليون سنة تقريبًا ، هو خلف لعائلة شبيهات البشر التى تم ارتقاؤها وتطورها على مدى عدة ملايين من السنين .

واستمرار نسله)، وفقط ٠,٠١٪ من أزواج القواعد مختلفة بين الأفراد. تلك الأزواج القاعدية القابلة للاختلاف بين أفراد النوع، جزء منها متماثل فى العرق الواحدومختلف بين الأعراق، ويمثل هذا الجزء حسب الآراء السائدة حاليًا حوالى ٨٪ (من هذه الـ ٠,٠١٪) وحوالى ٧٪ أخرى مختلفة بين القبائل والأسر والمجموعات داخل العرق الواحد. أما الغالبية العظمى من تلك القواعد (٨٥٪) فهى مختلفة بين الأفراد داخل المجموعة أو الأسرة الواحدة. ذلك يوضح أن الفروق الكمية بين الأفراد فى المجموعة العرقية الواحدة أضعاف أضعاف الفروق بين المجموعات أو الأعراق بغض النظر عن العرق نفسه أوروبيًا كان أو صينيًا.

من هنا يتبين أنه فى بداية القرن الحادى والعشرين، وبعد هذا التاريخ الطويل للنوع البشرى والتزاوج المستمر بين المجموعات والأفراد طوعًا أو قسرًا، فإن الاختلافات الچينية بين الأعراق قليلة جدًا من ناحية الكمية بالنسبة للچينات المتماثلة. أما من ناحية النوع ومدى التأثير فى البناء الفيزيقى، فهذا أمر آخر، فقد يكون الاختلاف فى قطر شعرة الرأس وقد يكون الاختلاف فى عدد خلايا الذاكرة البصرية مثلاً، وهو أمر افتراضى غير محدد حتى الآن.

هناك آراء تنسب الاستعلاء والتعصب إلى عرق معين أو مجموعة معينة بناءً على مواصفات فيزيقية، كوصف الفيلسوف الألمانى نيتشة للإنسان الآرى طويل القامة ذى الشعر الأصفر، والجلد الأبيض، والعيون الزرقاء بأنه السوبرمان الذى يجب أن يكون له السيادة على جميع البشر الآخرين !!. وهذه الآراء فى أساسها مشكلة ثقافية تؤسس على فكر وسلوك، ولا ترتكز على أسس علمية بيولوچية محققة.

مع تطور نظم الحكم وإدارة المجموعات البشرية، تم تحديد الحيز المكانى المسمى بالدولة، وتم تخطيط الحدود وحراستها، وتحديد منافذ الدخول والخروج ومراقبتها وضبطها. لكن داخل ما يسمى بالدولة الحديثة يوجد العديد من الأعراق وأفرعها بدرجات متفاوته، وكلما قربت الدولة من الاعتدال فى مناخها وزادت حركة التاريخ فى منطقتها، تنوعت الأعراق واختلطت المجموعات البشرية داخلها، وأصبحت حقوق الأفراد وواجباتهم تحدد بالمواطنة؛ أى التبعية القانونية والإدارية لدولة ما، وليس بالعرق أو المواصفات التشريحية.

الباب الثانى

اختلاف الثقافات

- الفصل الأول: أسس البناء الثقافى فى المجتمعات
- الفصل الثانى: اللغة والحياة
- الفصل الثالث: الفن والفنون
- الفصل الرابع: الدين
- الفصل الخامس: العلم والبحث العلمى
- الفصل السادس: التكنولوجيا أو علم التقنية
- الفصل السابع: القيم والعادات والتقاليد

الفصـل الأول

أسس البنـاء الثقافى فى المجتمعات

المخ والعقـل

المخ جزء عضوى من جسم الكائن الحى موجود فى كل الفقاريات، وعلى رأسهم الإنسان، وقد نشأ وتطور حسب رأى البيولوچيين فى سائر الأقسام والمرتبات والأنواع فى المملكة الحيوانية لكى يؤدى وظائف محددة.

وأهم هذه الوظائف فى الحيوان هى إدارة وتنظيم وتنسيق الحركة لأجزاء الجسم المختلفة، سواء الحركة الإرادية أو اللاإرادية، حتى تؤدى الغرض منها بسهولة ويسر دون تضارب أو اختلاف أو تضاد. ومن الوظائف الأساسية للمخ فى الكائن الحى أيضًا هو قيادة الأحاسيس من شم وسمع، وبصر، وتذوق، ولمس مع ترجمة هذه الأحاسيس إلى نشاط يحمى الكائن ويحقق بقاءه البيولوچى ونموه وحفظ نوعه. ويشترك فى هذا النشاط كل أنواع الفقاريات من الأسماك إلى الطيور إلى الثدييات، ومنها الرئيسيات وعلى قمتهم الإنسان. هذا علمًا بأن هناك أنواعًا بدائية من الجهاز العصبى فى الحيوانات الأقل ارتقاءً وتؤدى الغرض مثل المخ بصورة أولية.

يسعى كثير من علماء تصنيف الحيوان لتحديد درجة ارتقائه، ويلجئون فى ذلك إلى مقارنة حجم المخ كعضو فى الجسم بحجم هذا الجسم كنسبة مئوية، ويقولون أنه كلما زادت هذه النسبة زادت درجة الارتقاء وتطورت إمكانية الأداء. ومن المعلوم أننا

نتعرف على حجم المخ فى الأحياء فى مراحل نمو البدن المختلفة، وفى الأزمان المختلفة عن طريق قياس حجم فراغ القحف فى الأحياء وفى الجماجم بوسائل متعددة، وقد ثبت أن حجم المخ فى النوع الإنسانى(Homo-Sapiens) لم يتغير منذ ما يقرب من خمسين ألف سنة حتى الآن، وكذلك لاتوجد فروق معنوية بين متوسط حجم المخ فى الأعراق المختلفة، وإن كان هناك فروق معنوية بين حجم المخ فى الذكور والإناث، وكذلك يوجد فروق فى هذا الحجم بين الأفراد فى العرق الواحد ولكن فى إطار مدى محدد.

بلغ مخ الإنسان درجة عالية من الارتقاء فى التكوين، لدرجة أنه يمكن أن يؤدى وظائف أعلى بكثير من الوظائف السابقة، وأهمها الذاكرة وتخزين المعلومات والمعارف واستدعاؤها عند الحاجة ،والتخيل والتصور والإدراك والتحليل والاستقراء والاستنباط . . . وغير ذلك مما يعنى أنه قمة التطور فى خلق الله فيما نعلم.

والعقل يعنى هذا النشاط الرفيع فائق التطور الذى يتميز به المخ البشرى عن سائر للمخلوقات المعروفة بكل ما يؤدى إليه من خيرومن شر. هذا مع العلم بأن العواطف والمشاعر والأحاسيس التى يشارك الإنسان فيها الكثير من الحيوان الأقل درجات فى التكوين، قد ارتقت أيضًا فى الإنسان بدرجات متفاوتة، وكونت الوجدان الإنسانى بكل ما وصل إليه من رقى ومن رهافة.

إذن المخ واكتماله وسلامته كعضو مادى فى جسم الإنسان، هو الأساس البيولوچى لهذا النوع من النشاط المتميز سواء فى جانبه الخلاق، وهو العقل، أو المستقبِل والمحرك أيضًا وهو الوجدان.

ومن جوانب الأداء الفريدة للعقل الإنسانى، هو اللغة وما تعنيه من صياغة الفكر . . . والاهتداء إلى التعبير عنه بالصوت وتصوير الصوت بالشكل المرسوم (الكتابة) مما أدى إلى تراكم المعرفة وانطلاق الفكر الإنسانى إلى آفاق رحبة من مراحل التقدم التى نعيشها فى عصرنا الحالى.

يعتقد كثير من علماء التاريخ الطبيعى للإنسان أن المخ البشرى لم يتغير خلال الخمسين

ألف سنة الأخيرة، ليس فى حجمه فقط، ولكن أيضًا لم يتغير فى تركيبه التشريحى وأجزائه المختلفة التى تحتوى على عدة بلايين من الخلايا العصبية فائقة الاتصال، وإن كانت منتظمة فى مجموعات متخصصة الوظائف؛ فهذه للذاكرة وتلك للبصر وأخرى للسمع. . . وهكذا (هذا ينطبق على أى إنسان فى أى مكان على هذا الكوكب).

تتأثر الوصلات العصبية داخل مخ الإنسان، والتى تشكل نشاطه ونتاج هذا النشاط معنويًا بالإشارات والمنبهات والمثيرات الواردة إليه من البيئة المحيطة عن طريق الأحاسيس والحركة، ومع تراكم الخبرات على مدى آلاف السنين، تغير العقل الإنسانى ومايتنتجه بصورة بارزة نقلت الإنسان من عصر الصيد والقنص إلى عصر الزراعة منذ حوالى عشرة آلاف عام فقط، ثم إلى عصور الصناعة فى القرون القليلة السابقة، ثم إلى عصر التكنولوچيا الإليكترونية التى نعيشها اليوم.

العقل والثقافة

رغم ندرة معارفنا الموضوعية عن كيفية أداء المخ لوظائفه، فإن العقل ممارسة بشرية (المخ العضوى فى حالة نشاط، ونتاج هذا النشاط نوعى ومميز للإنسان ولا يشاركه فيه أى كائن حى آخر)، ولذلك يوصف الإنسان المعاصر بأنه الإنسان العاقل المنتج للثقافة.

وتعريف الثقافة من الأمور التى تعددت وتنوعت فيها الآراء، وذلك لأسباب عديدة منها اختلاف الأصول اللغوية للمصطلح فى البيئات المختلفة. فالأصل اللغوى للثقافة عند العرب هو «ثقف الرمح» أى جعله حادًا مدببًا، أى زيادة فاعلية الشىء وجعله أكثر مواءمة لوظيفته. أما عند الأوروبيين مثلاً فالثقافة (Culture) (*) هى الاستزراع واختيار البيئة المناسبة لما نزرعه ورعايتها حتى ينمو ويزدهر ويثمر.

ولذلك سأقوم بتعريف الثقافة مرتين:

أولاً: أعتقد أن الثقافة فى مفهومها الإنسانى الأكاديمى العام هى «كل نتاج التفاعل بين العقل البشرى ذى الملكات النوعية الخاصة، والبيئة المحيطة بمعناها الواسع وبمواصفاتها المحددة والمتنوعة على هذا الكوكب، ويمتد هذا الإنتاج من الملبس

(*) طبقًا لقاموس ميريام ويبستر، فإن Cult تعنى عبادة ونظام معتقدات وطقوس دينية.

والمسكن إلى اللغة والآداب والعلوم والفنون إلى العادات والقيم والعقائد . . . ولكل مجتمع ثقافته» .

ثانيًا: فى مفهومها الخاص : الثقافة هى خلاصة نتاج العقل البشرى ، وأرقى ما وصل إليه من فكر جاد ومعرفة واسعة ، وتعبير جميل وإحساس مرهف ، ووجدان نبيل ونفس سمحة ، وإظهار ذلك بصورة محسوسة .

وحيث إن البيئات تتنوع سواء فى مواصفاتها البيولوچية وما فيها من نبات وحيوان وإنسان ، أومواصفاتها الكيميائية وما فيها من مواد ومركبات وأخلاط ، أو مواصفاتها الطبيعية من إشعاعات ومناخ بما يتضمن من حر وبرد ورطوبة وجفاف . . . وهكذا ، ذلك يجعلنا نتوقع أن النشاط العقلى مرتبط إلى حد معنوى بتنبيه مجموعات الخلايا العصبية المختلفة ، بواسطة عناصر البيئة المختلفة ، و للمحيطة بالكائن فى مفهومها الشامل مع تراكم الخبرة والمعرفة والمقدرة على حفظها واستدعائها ، فكلما كانت المنبهات البيئية متنوعة ومثيرة أدت إلى التنوع فى نشاط وأداء مجموعات الخلايا العصبية وازدياد تعقيداتها ، وعلى ذلك تنشأ وتتطور فى المجموعات البشرية المختلفة ثقافات مختلفة ، لكنها كلها تخدم البقاء والنماء لتلك المجموعات بدرجات متفاوته كلٌ حسب بيئته وظروفه واحتياجاته .

الإدراك والفهم

مر استخدام الإنسان لطاقته العقلية الإدراكية فى التعامل مع البيئة المحيطة بمراحل متنوعة منذ وعى وجوده على هذا الكوكب حتى اليوم . . .

فى البداية كان الربط بين الأحداث والظواهر المحسوسة يتم بصورة بُدائية عن طريق التوافق بينها فى الشكل أو المكان أو زمان حدوثها . . . أو غير ذلك من التوافقات التى قد تكون عشوائية وبمحض المصادفة . . . وهذا ما يعرف بالخرافة .

ثم بدأ الإنسان يتحقق من المحسوسات ، ويحاول أن يربط بينها باستحداث واستخدام مجموعة من القواعد التى تحكم النشاط العقلى ، وتجعل حكمه على الظواهر أقرب إلى الواقع والفطرة . . . وهذا ما يسمى بالمنطق العقلى .

وأخيراً لجأ عقل الإنسان إلى التجريب المحكم واستخدام الرموز فى التعبير عن الأفكار، مما ساعد فى تسهيل عملية الاستقراء، وعلى التحقق من درجة قرب نتائجها أو بعدها عن الصواب.

من خلال تجارب آلاف السنين، زاد إدراك الإنسان لنفسه ولإمكاناته، وللطبيعة من حوله، ولم يركن إلى جمع الثمار وصيد الحيوانات كوسيلة وحيدة لبقائه، بل استخدم إمكاناته العقلية ومخزون معارفه فى زراعة وتجارة وصناعة؛ لتسهيل حياته ورفاهيته، وأيضًا فى حماية نفسه من عدوان أبناء نوعه.

إذن الإدراك هو تنظيم التجارب الحسية للإنسان وترتيبها بالنسبة للمكان والزمان فى إطار أحداث أو موضوعات ذات معنى عقلى متكامل، والإدراك كعملية عقلية يعتمد على عدة عوامل منها سلامة أجهزة الحس، نوعية وصفات المدركات الخارجية، وأيضًا الطبيعة العقلية للفرد المدرك، تلك الطبيعة الخاصة التى تكونت وتطورت فى بيئة ذات مواصفات خاصة وتميز فرداً عن آخر وتؤدى إلى اختلاف ردود أفعالهما تجاه الحدث الواحد. وعلى ذلك فالإدراك يبدأ بالذات وينتهى بحماية الذات، وهذا يحتم سيطرة مجموعة خاصة من القيم؛ منها الأنانية . . . فالثروة ثروتى أنا، والمصلحة مصلحتى أنا، والحياة أحياها أنا. . . وإذا اتسعت فلأولادى من بعدى، وهذا النوع من الفكر العقلانى دائم النمو، ويبحث فى أصل المحسوسات من مادة وحياة، ويدور حول كشف العلاقات بين الأسباب والنتائج فى العالم المحسوس لضمان بقاء الفرد وتسهيل سُبل حياته. . . وهذا النوع من الفكر يؤدى أيضًا إلى سيادة قيم أخرى بجانب الأنانية وحب الذات، منها الدقة والانضباط حتى تسير الحياة ولا تتضارب المصالح من ناحية، ويؤدى إلى خلق العنف والقسوة إذا تضاربت المصالح من ناحية أخرى.

لكن هناك جانبًا آخر من النشاط العقلى الإنسانى وهو الفهم، ذلك الجانب الذى يسعى إلى تفهم دور الإنسان فى الكون ودوره كوحدة فى مجتمع. . . والفهم هنا له فلسفة تعتمد، أولاً وقبل كل شىء، على التصور العقلى للحقيقة النهائية للوجود.

على سبيل المثال، مجتمعنا بحكم الواقع والتاريخ يرى أن هذه الحياة التى نحياها مجرد معبر مؤقت إلى حياة أخرى خالدة. بدأ هذا التصور العقلى على أرض مصر منذ

آلاف السنين، وأكدته كل الأديان السماوية التي ظهرت في هذه المنطقة من العالم وانتشرت في سائر الأجزاء... أليس هذا ما نؤمن به؟!

ورغم أن رؤيتنا هذه تتشابه مع رؤية سكان الشرق الأقصى في بعض الوجوه، لكنها تختلف جذريًا عن تلك التي سادت بين الأوروبيين سكان شمال المعمورة في سالف الأزمان.

عندما يعي الإنسان أنه حلقة في سلسلة نوعه، وأنه نتاج لسلف ومُنتِج لخلف، وإن كانت حياته محدودة كفرد فهي ممتدة كنوع، ولا بد أنه مبعوث يوم الحساب، فإنه ينتج عن هذا الفهم مجموعة معينة من القيم والأخلاق التي تحكم سلوكه في رحلة الحياة، مثل العدل، الإحسان، التضحية، النجدة، الرحمة، الرفق، السماحة، الطهارة... وغيرها، والعبرة في هذه القيم أن يمارسها الإنسان بدافع من ضميره حتى وإن غاب الرقباء والمشاهدون.

إن إدراك الواقع الحياتي كما سبق ذكره، دون فهم واع دقيق لدور الإنسان، يؤدي إلى تقديس الذات وانعزال الفرد عن هموم جماعته الإنسانية، بل ويدفعه إلى الاعتقاد بأن الآخرين ما وجُدوا إلا لكي يخدموه ويحققوا طموحه المحدود بسيادته وعظته كفرد... وقد يكون هناك مجتمع كامل من مثل هؤلاء الأفراد يرى بتقدمه في إدراك الواقع الحياتي وتطبيقات معارفه عن الطبيعة أنه أحق الجميع بالسيادة على سائر البشر.

يستحق الأمر التساؤل: هل الفهم كما أسلفنا نقيض الإدراك؟ أم أن كليهما مكمل للآخر؟ هل هناك مجتمعات إنسانية بلغت شأنًا ملموسًا في إدراك الطبيعة ومعرفة قوانينها، وأخرى تبذل معظم وقتها في فهم الإنسان ودوره في الوجود؟ وهل ثقافة الإنسان تتميز بنسب مختلفة من الإدراك والفهم في مراحل تطورها المختلفة؟ كيف يسعى الإنسان للتوفيق بين احتياجاته الذاتية واحتياجات إخوانه في الإنسانية؟

وحتى يمكن الإجابة عن هذه التساؤلات، يحتاج الأمر أولاً إلى البحث عن العناصر المكونة لثقافة مجتمع ما وإلقاء نظرة فاحصة عليها.

عناصر الثقافة

يعتقد معظم الأكاديميين أنه نتيجة لتفاعل الإنسان؛ هذا المخلوق الحي ذو الملكات

البدنية والنفسية الخاصة، مع البيئة المتنوعة المواصفات، أن تكونت وتنوعت لغات وعادات، وتقاليد، وآداب، وفنون، وعلوم، وقيم، بالإضافة إلى تنوع المأكل والملبس والمسكن . . . إلخ، كل هذه العناصر لنتاج ذلك التفاعل وهى فى مجملها المادى والمعنوى، كما سبق أن أشرنا، تمثل الثقافة الخاصة لمجتمع ما.

وهناك اجتهاد من بعض المتخصصين يقول بأن الجانب المادى من الثقافة هو ما يطلق عليه أحيانًا مصطلح «الحضارة» بحكم أصول المصطلح اللغوى، والذى يعنى حضور بنى الإنسان مع بعضهم البعض، واشتراكهم فى الإقامة فى حيز مكانى واحد وثابت، وتنظيمهم لهذا المكان وحدوده وشوارعه وخدماته ومبانيه ونشاطات أفراده. والحضر هى المقابل للبداوة، والتى تعنى الرعى والتنقل والترحال من مكان إلى مكان آخر وراء الكلأ ومصادر المياه.

إذن أعتقد أن الثقافة أشمل وأعم من مصطلح الحضارة، والعناصر المختلفة للثقافة فى المجموعات البشرية ليست ثابتة فى الزمان، بل متغيرة مع الأيام وتتغير مواصفات الثقافة فى المجموعات المختلفة مع زيادة الخبرة مع الحياة وكثرة التجارب مع الأيام فتضاف بعض المواصفات ويسقط البعض الآخر، كما أن المجموعات البشرية تأخذ من بعضها البعض مواصفات لعناصر ثقافية معينة تناسب تكوينها وابتداع أكثر وتغفل أخرى.

يلفت بعض المفكرين النظر إلى أن تاريخ الإنسان وتطور ثقافته لا يلتزم كليًا بالقوانين التى تحكم الطبيعة (من جبال وأنهار وبحار وأحياء . . .) حيث إن الإنسان ليس بدنًا تحكمه القوانين البيولوچية فقط، بل هو نفس و روح، كلاهما أيضًا يختلف عن البدن. وهذا يعنى أن عناصر الثقافة تحددها الطاقة الروحية فى الإنسان، وكذلك الظروف البيئية المحيطة به فى مراحل حياته المتعددة أكثر مما تحددها الچينات التى يرثها.

هذه العناصر الثقافية هى السلوك والوسائل والحلول التى يجدها ويطورها الإنسان لكفاية احتياجاته سواء المادية منها أو المعنوية. فإذا كانت احتياجات الإنسان المادية الأساسية تتركز فى الطعام والتكاثر والأمان لحفظ النفس والنوع، فإن

الاحتياجات المعنوية يحددها الرضا والطمأنينة والسعادة سعيًا وراء الحق والخير والجمال.

والإنسان الفرد لا يختار ثقافته، بل إنه يولد فى إطار نموذج ثقافى تشكل على مدى السنين فى مجتمع ما، هذا وإن كانت طاقته الروحية والمعنوية الخاصة قد تجعله يغير أو ينمى أحد عناصر نموذج ثقافة مجتمعه عن طريق التعلم والمحاولة والخطأ، ولكن فى حدود.

وقد تكون اللغة والعقيدة والفن والعادات والتقاليد من أوائل العناصر الثقافية التى مارسها الإنسان العاقل، وقد يكون من آخرها العلم الحديث وتطبيقاته كما نراها اليوم فى عالمنا المعاصر، ولذلك سأبدأ بنظرة على ماهية اللغة.

* * *

الفصل الثانى

اللغة والحياة

التواصل واللغة

يتواصل أعضاء معظم أنواع الحيوان بطرق متعددة، منها إصدار الأصوات واستقبالها ورؤية الألوان وتغييرها والتلامس ودلالاته، وأيضًا حركة أجزاء الجسم وأوضاعه المختلفة، وكذلك إفراز بعض المواد الكيميائية ذات الروائح المميزة، وغير ذلك مما نعرف وما لا نعرف.

وغالبًا ما تكون الدوافع لهذا التواصل دوافع بيولوچية، بمعنى الحرص على البقاء واستمرار النوع. . . فعندما تجوع الصغار تتصايح طلبًا للطعام، وعندما يقترب عدو مفترس، يقوم الكبار بالتحذير والاستعداد للدفاع بوسائل اتصال متعددة مما سبق ذكره، كما أن بعض الكائنات الحية تفرز مواد لها روائح معينة تعلن اكتمال النضوج والاستعداد للتكاثر وتدعو للتزاوج.

أما فى حالة الإنسان أكرم المخلوقات، فمع احتفاظه بكل هذه الوسائل للتواصل، فقد تميز باللغة، وأصبح الدافع لاستخدام اللغة ليس دافعًا بيولوچيًا فقط، بل معنويًا بالدرجة الأولى. . . وتعتبر نشأة اللغة وتطورها واستخدامها مكونًا أصيلاً وأساسيًا لثقافة الإنسان.

ورغم وجود صفات مشتركة بين اللغة فى الإنسان ووسائل الاتصال فى الحيوان- حيث إن كليهما هادف وكليهما تحكمه قواعد منظمة- فإن هناك اختلافًا نوعيًا قاطعًا بينهما لا يسمح بأن نعتقد أن اللغة مجرد وسيلة اتصال أرقى من الأخريات فى عالم الحيوان، وذلك حسب بعض الآراء المعتبرة للمتخصصين، وإذا حاولنا تتبع ارتقاء وسائل الاتصال بين أنواع الحيوان إلى أن نصل إلى اللغة فى الإنسان، فسنواجه مشاكل حقيقية تجعل من غير المقبول اعتبار اللغة إحدى الحلقات فى سلسلة تطور وسائل الاتصال فى المملكة الحيوانية!!

اللغة والتفكير

إن اللغة وامتلاكها مرتبط بنمط معين ونوعى من النشاط العقلى الخاص بالإنسان، فاللغة وسيلة فائقة الفاعلية لتواصل المفاهيم، وخاصة المجرد منها (على سبيل المثال كلمة نهضة فى وصف نهوض الأمم وما تتضمنه من جوانب ارتقاء عديدة منها الاجتماعية والاقتصادية وغيرها)، ولها مميزات متفردة منها:

(أ) ما يمكن أن يطلق عليه «الانضغاط الاستعرافى»، ويعنى أن يقوم المخ بتصنيف العالم المحيط بنا، والترميز المحدد لمكوناته مع الإقلال من تعقيد المفاهيم بالقدر الذى يجعلها سهلة ميسرة التداول (مثل التصنيف للمرئيات والمحسوسات كالنور والظلام والسائل والصلب... وما تعنيه هذه الكلمات من معارف واسعة).

(ب) اختزان المعارف وتداولها بين العقول فى الجيل الواحد، والأجيال السابقة واللاحقة وبما يسمح بتراكم فائدة هذه المعارف وتعظيمها.

(جـ) «الاقتصاد المعرفى» ويعنى أن يتمكن الناس من بناء مفاهيم مطردة التعقيد من معلومات أولية بسيطة، وإمكان استخدام تلك المفاهيم فى عملية التفكير فى مستويات أعمق يستحيل بلوغها دون اللغة(*).

(*) مفهوم الزمن والنظرية النسبية، على سبيل المثال، لا يمكن الوصول إليها دون تراكم معارف أولية عديدة عن الأجسام والحركة والضوء ومكوناته وسرعته.. ويمكن التعبير عنها بلغة وربطها بعضها البعض.

إذا كان التفكير هو جوهر العمل الذهنى لعقل الإنسان، فإنه فى أبسط حالاته يمكن اعتباره عملية آلية للمواءمة الإرادية بين الإنسان وسماته البيولوچية والسلوكية من جهة، والأشياء والعلاقات الموجودة فى بيئته من جهة أخرى، بما يعنى أن التفكير «فى مستواه الأول» هو عبارة عن التعامل مع المدركات الحسية، أو مايصل إلى المخ عن طريق الحواس بما يخدم البقاء كما سبق ذكره، وفى «المستوى الثانى» الأعمق، تؤدى عملية التفكير إلى بناء نظم معرفية فى صورة مبادئ وقواعد ونظريات تربط المدركات الحسية بعضها ببعض وتؤدى إلى الاستقراء والاستنباط، والتفضيل والاختيار بين البدائل، بالإضافة إلى توليد أفكار جديدة غير مرتبطة بالمدركات الحسية بصورة مباشرة، والتفكير فى أعمق مستوياته «المستوى الثالث» يؤدى إلى الإبداع والابتكار، وذلك لا يعنى أن كل إنسان يمارس التفكير بمستوياته الثلاثة، ولكن المشهود حاليًا أن الفكر الإنسانى على العموم أدى إلى ابتكار منتجات جديدة لم تكن موجودة فى الطبيعة قبل وجود الإنسان، وتزيد أو تقل درجة تعقيد تلك المنتجات تبعًا لكمية ونوعية المعرفة المختزنة (العلوم والمعارف المستخدمة فى إنتاجها)، وأيضًا تبعًا للقدرة على استخدام تلك المعارف فى إعداد تلك المنتجات (ما يعرف بالتكنولوچيا)، وسنقوم بالتعرض للعلم والتكنولوچيا لاحقًا فى حينه بالتفصيل.

وما كان يمكن للإنسان أن يبلغ كل هذه المستويات فى التفكير ونتائجها دون اللغة ومميزاتها المتفردة المذكورة سابقًا.

وعلى ذلك يمكن تلخيص وظيفة اللغة كالآتى:

١ـ اللغة هى وسيلة تساعد الإنسان على تشكيل أفكاره، ونشاطه الذهنى فى صورة محسوسة سواء كلفظ منطوق أو كلمة مكتوبة.

٢ ـ اللغة تساعد الإنسان فى التعبير والنقل، والمشاركة مع الآخرين فى المعارف والتجارب.

٣ ـ اللغة تساعد فى حفظ وتراكم المعرفة.

٤ ـ اللغة هى وسيلة اقتصادية لبناء مدارك ومفاهيم مركبة من معلومات بسيطة أولية، كما أنها تساعد الإنسان على استخدام هذه المفاهيم المركبة على التفكير فى مستويات أعمق.

والألفاظ المنطوقة تتميز بالنبرة وحركة اليدين، والوجه وأجزاء الجسم، وتطويل أجزاء من الكلمة وتقصير أخرى . . . وغير ذلك مما يضيف الكثير من المعلومات للمستمع بالإضافة لمعنى اللفظ، لكن الكلمة المكتوبة قابلة للفحص والتحليل والتقيم والتطوير، وتزيد المخزون المعرفى لأية أمة بصورة هائلة، إذ لاتعتمد على الذاكرة الإنسانية المحدودة، بل يمكن حفظ الأفكار وتراكمها لأجيال عديدة قادمة .

آلية توليد اللغة

يرغب الإنسان المتطلع إلى المعرفة وأصولها فى اكتشاف ماهية اللغة، كيف نشأت وتطورت على مدى تاريخ الإنسانية ؟ وكيف اختلفت بين مجموعات البشر ؟ ما علاقة اللغة المنطوقة أو المقروءة بالإدراك والفهم؟ ما آلية توليد اللغة وصياغتها فى الدماغ؟

لاشك أن الإجابات عن تلك الأسئلة هى مجال المشتغلين بفسيولوچيا المخ والأعصاب وسيكولوچية اللغة وعلوم اللغة المختلفة . . . وتهم كل محبى اللغة والمفكرين . . .

ويمكن القول أنه فى البداية لم يكن هناك لغة، ولكن خلال عملية التطور وتراكم الخبرات، اكتسب الإنسان العاقل (وربما أجناس وأنواع أخرى من العائلة البشرية سبقته!!) القدرة على توليد وإبداع التصورات العقلية للأشياء، والحوادث والعلاقات وتصنيفها، ثم الاتفاق على رموز صوتية لتلك التصورات، ثم تكوين الكلمات وتركيبها فى جمل . . . ثم نضج عمليات اللغة وخاصة العمليات النحْوية التى تضع القواعد المنظمة للتعبير .

ويحتمل أن يكون نشوء وارتقاء اللغة فى النوع الإنسانى (خلال العشرين ألف سنة الماضية) قد تم على نحو مشابه لتطور اللغة فى الرضيع، والتى تبدأ بتصور المفاهيم واستحضارها فى المخ، ثم التعرف على الحالة العاطفية للمحيطين به من الشكل ونبرة الصوت فى أثناء الكلام، ثم يتم توليد عشرات الآلاف من الأفعال فى ذهنه، ثم يبدأ بربط ألفاظ معينة بكل فعل أو حالة، ثم يعى الكلمات مع النضج ويبدأ فى استخدامها .

إن اللغة عبارة عن «نتاج مصنوع» يتمثل فى مجموعة من الرموز ضمن توافيق مقبولة ويحكم تجميعها مبادئ وقواعد، وحتى الآن ليس هناك فهم متفق عليه بين العلماء المهتمين عن الأسس العصبية لتمثيل المخ للأشياء المحيطة وللحوادث وعلاقاتها، كذلك أسس تمثيل اللغة والآليات التى تربط هذين التمثيلين، هذا ويعتقد البعض حاليًا أن المخ يعالج اللغة وتوليدها بثلاث مجموعات من المنظومات العصبية كما يلى:

١ ـ مجموعة كبيرة من المنظومات العصبية (منتشرة على نصفى الكرة المخية الأيمن والأيسر) والمرتبطة بمراكز الإحساس والحركة والذاكرة، وتقوم بتمثيل التأثيرات غير اللغوية بين جسم الإنسان وبيئته المحيطة، تلك التأثيرات التى تحققت بواسطة المنظومات الحسية والحركية المختلفة، ونعنى بذلك كل الأشياء التى يفكر بها أو يفعلها الشخص أو يدركها عن طريق أحاسيسه المختلفة أو جهازه الحركى فى أثناء تعامله مع الوسط المحيط به، ثم تقوم هذه المجموعة من المنظومات العصبية بتصنيف هذه التمثيلات (غير اللغوية) ضمن أطر (مثل الشكل، اللون، الترتيب، الحالة العاطفية... وهكذا) بل تبدع مستوى آخر لتمثيل نتائج التصنيف، وبهذه الطريقة يرتب الناس الأشياء والحوادث والعلاقات فى طبقات هرمية من التصانيف واحدة تلوَ الأخرى، على سبيل المثال تصنيف الألوان كإطار تمثيلى أولى، يلى ذلك ربط وَتصنيف اللون الأحمر مثلاً كدلالة على الخطورة أو الأمان، ثم يلى ذلك تصنيف الخطورة بدرجاتها... وهكذا، وتشكل تلك الطبقات المتتالية من التصانيف والتمثيلات الرمزية أساس التجريد.

٢ ـ مجموعة أقل عددًا من المنظومات العصبية (تقع عمومًا فى نصف الكرة المخية الأيسر)، وتقوم بتمثيل الحروف الصوتية وتركيبها، كما تقوم بتمثيل قواعد النحو الناظمة لربط الكلمات بعضها ببعض، وتقوم تلك المنظومات العصبية لدى تحريضها من داخل المخ على تجميع صيغ الكلمات، وعلى توليد الجمل المطلوب قولها أو كتابتها، وأيضا قد يكون تحريض تلك المنظومات من الخارج عن طريق سماع كلام أو قراءة نص، فتقوم بأداء تلك المعالجة الأولية لإشارات ورموز اللغة المسموعة أو المرئية.

٣ ـ مجموعة من الخلايا العصبية (تقع فى نصف الكرة المخية الأيسر) تتوسط المجموعتين السابقتين وتقوم باستيعاب المفاهيم، والتى تم تمثيلها بواسطة المجموعة

الأولى ، ثم تستحث المجموعة الثانية لإنتاج صيغ الكلمات وتوليد الجمل التى تتوافق وتعبر بأكبر دقة ممكنة عن تلك المفاهيم ، كما تستطيع استقبال الكلمات والجمل الواردة للمجموعة الثانية عن طريق الأحاسيس وجعل المجموعة الأولى تستحضر المفاهيم المقابلة لها .

مما سبق نرى أن اللغة كآلية لصياغة الأفكار فى صورة حسية ، سواء كانت أصواتًا تُسْمَع ، أو كلمات تُقْرَأ ، هى إحدى سبل الإمساك بعملية التفكير ، والنظر فيها سواء بالنسبة للفرد أو المجموعة من البشر ، وذلك يعنى أيضًا أن دراسة اللغة وتوليدها تستخدم أحيانًا كوسيلة لدراسة سلامة المخ البشرى وانضباط نشاطاته .

التشابه والفروق بين اللغات

يُعتقد حاليًا أن عملية التفكير لكل البشر تحكمها قواعد منطقية واحدة ، فكل الناس تتفق على مجموعة من البديهيات والمسلمات والأحداس التى تحكم عملية التفكير وتؤدى إلى أفكار مقبولة يمكن التحقق من مدى صدقها . . . وعلى سبيل المثال فالكل يتفق على أن «أقصر مسافة بين نقطتين هى الخط المستقيم» وأن «الجزء أقل من الكل» و«أن القيمتين اللتين تساوى كل منهما قيمة ثالثة متساويتان» . . . وهكذا ، وقد اهتدى الإنسان أيضًا إلى أن الفكر يمكن أن يكون صحيحًا أو خاطئًا ، واضحًا أو معتمًا ، مرتبًا أو مشوشًا . . . كل ذلك طبقًا لمدى الالتزام بالقواعد المنطقية المتفق عليها ، والمنظمة لعملية التفكير فى موضوع ما .

يعتقد معظم المهتمين بدراسة اللغة كظاهرة إنسانية بأن معظم لغات البشر المعاصرة تشترك مع بعضها البعض فيما يسمى القواعد العامة لبناء اللغة ، أو البناء الهيكلى المشترك لكل اللغات ، وهذا يعنى أن جميع اللغات لها نسق عام واحد فى أساسياته ، وتعبر عن المستوى الفريد للوعى الذهنى للإنسان وتميزه عن باقى المخلوقات ، كما أنها تعكس حقيقة الأصل الواحد لكل مجموعات البشر .

لكننا نلاحظ أيضًا اختلافات واضحة وعديدة بين لغات البشر ، على الأقل فى شكلها الظاهرى ، فلكل لغة سماتها الخاصة التى تميزها عن اللغات الأخرى ، ليس فى

شكلها الظاهرى فقط، ولكن أيضًا فى المعانى الضمنية العميقة العديدة من التركيبات اللغوية (وقد تكون الاستعارات مثالاً واضحًا). ويعتقد بعض علماء اللغة أن الصفات الخاصة بالبناء اللغوى لكل أمة أو مجموعة من البشر، والتى تميزها عن لغات الأمم الأخرى، مرتبطة بالمواصفات التفصيلية الذاتية للعمليات الذهنية لأفراد تلك الأمة، تلك العمليات التى تتم بواسطة المجموعات العصبية فى المخ (التى سبقت الإشارة إليها) والتى استخدمتها ونظمتها خبرات تلك الأمة فى بيئتها الخاصة على مدى مئات الأجيال. وعلى سبيل المثال، فكل اللغات تمتلك منظومة محددة من الأصوات المميزة للكلام (الحروف) ويختلف عدد هذه الأصوات ما بين ١٥ ـ ٥٠ صوتًا فى اللغات المختلفة، وتتجمع هذه الأصوات بصورة محددة لتكوين كلمات (غير محددة العدد) والكلمة إما اسم أو فعل أو حرف، وهكذا، لكن معظم اللغات المعروفة فى زماننا المعاصر تختلف عن بعضها من عدة جوانب منها:

١ ـ عدد المقاطع الصوتية المكونة للكلمة فى كل لغة، فإما أن يكون واحدًا أواثنين كما فى اللغة الصينية، وإما أن يتكون من عدد كبير من المقاطع، كما فى اللغة الألمانية مثلاً.

٢ ـ نوع الكلمة بين مذكر ومؤنث ومحايد ليست واحدة فى كل اللغات، فالشمس مثلاً مؤنثة فى اللغة العربية ومذكرة فى الإنجليزية، والنافذة مؤنثة فى العربية ومحايدة فى الروسية. . . وهكذا.

٣ ـ الفروق بين الفعل والاسم، وتحول الكلمة من اسم إلى فعل والعكس وعلاقة ذلك بزمن الحدث.

٤ ـ القواعد النحوية والعديد من التفاصيل عن تركيب الجمل وقواعد الربط بين الكلمات وغير ذلك، مما يبحث فيه «علم اللغات المقارن».

وهنا يبرز سؤال مهم، هل يمكن لعقل الإنسان أن يتواءم مع نظامين لغويين مختلفين؟ الجواب من الواقع هو نعم بشرط أن يبدأ تمرين العقل على النظامين منذ البداية؛ أى منذ السنوات الأولى من العمر وتكون الممارسة فى كلتا الحالتين على أسس سليمة بواسطة خبراء اللغتين.

تطور وتغير اللغات

يُعتقد أنه فى الأزمان البعيدة كان هناك لغة واحدة لكل البشر، وذلك توافقًا مع الأصل البيولوچى الواحد للإنسان العاقل، ومع انتشار البشر على هذا الكوكب واستقرارهم فى أماكن متباعدة، لكل منها مواصفات خاصة، اكتسبت كل مجموعة تصوراتها الخاصة من البيئة المحيطة، وتطورت وسائل الاتصال بين أفراد كل مجموعة على مر الأجيال بصور مختلفة نتيجة لتجاربها الخاصة.

يقسم العلماء المتخصصون اللغات المعاصرة إلى فروع، يضم كل فرع مجموعة من اللغات ذات الأصل الواحد، فهناك على سبيل المثال فرْع اللغات الهندوأوروبية، وتضم بعض اللغات القديمة، مثل اللاتينية والجرمانية والسلافية والفارسية والسنكريتية (الهندية). . . ، ويتم تفسير ذلك بأنه فى سالف الأزمان وقبل ما يقرب من سبعة آلاف عام كان هناك قوم يحاولون زراعة الوديان (بين نهر الدانوب ومرتفعات أوكرانيا الحالية) وقاموا باستئناس الحيوان، وترويض الخيول البرية مما ساعدهم على الانتشار شرقًا وجنوبًا نحو بلاد فارس وشمال الهند، وغربًا وشمالاً نحو بحر الشمال والمحيط الأطلنطى، وحملوا معهم جذور نوعٍ من التواصل اللغوى تطورت منها العديد من اللغات المعاصرة.

فمن اللاتينية القديمة التى هى إحدى لغات أفرع اللغات الهندوأوروبية، تطورت اللغات الإيطالية والإسپانية، والفرنسية والرومانية. . . ومن السلافية القديمة تطورت الروسية والأوكرانية، والپولندية والتشيكية. . . ومن الجرمانية القديمة تطورت الألمانية والدانمركية والسويدية. . . وهكذا

ويقوم المختصون بدراسة أصول الكلمات ذات المعنى الواحد فى تلك اللغات، ومدى التشابه والترابط بينها الذى قد يكشف الأصل الواحد لها، مع تتبع قواعد التغير المفترض.

ويعتقد أن تغير اللغات فى الماضى القريب، وفى الزمن الحالى، هو نتيجة للتبادل التجارى بين المجموعات البشرية وتلقيح لغة كل مجموع بألفاظ وكلمات من اللغة الأخرى لتسهيل وتبسيط التعامل بينها، أما فى حالة الغزو والحروب فإن لغة المنتصر

تسود أو ينقل منها العديد من الكلمات والتعبيرات إلى الأخرى، وعلى سبيل المثال تطعيم اللغة المصرية القديمة باللغة اليونانية رغم أصولهما المختلفة (اللغة المصرية القديمة أحد فروع مجموعة اللغات الأفروآسيوية، والتى تضم اللغة العربية والعبرية أما اللغة اليونانية فهى من فروع مجموعة اللغات السلافية).

أما فى العصر الحديث، فتتغير اللغات نتيجة للزيادة المطردة للمعارف والعلوم الجديدة (مثل وسائل الاتصال الحديثة والحاسوب الإليكترونى) التى تعرض ألفاظًا وقواعد للتعبير جديدة وتضفى شكلاً جديدًا للغة الأصل.

تختلف قابلية اللغات للتغيير وسرعته من لغة إلى أخرى، فكلما كان أهل اللغة ذوى ملكات عقلية تصورية وتخيلية مميزة ومتقدمة، وكانت كلماتهم وألفاظهم وافرة وكانت تعبيراتهم فصيحة وبليغة، كلما كان التغيير أبطأ، كاللغة العربية مثلاً، والتى كان أهلها يقيمون لها فى قديم الزمان سوقًا للمنافسة (سوق عكاظ).

اللهجة واللغة

التمييز بين اللهجة واللغة ليس من الأمور السهلة، فكلتاهما تعتمد على كلمات وقواعد ربط هذه الكلمات حتى تؤدى معنى ما، إلا أن اللهجة تعتبر فرعًا أو نوعًا خاصًا من اللغة الرسمية المعيارية الأدبية المعتمدة لثقافة عامة واحدة، وتستخدم اللهجة عادة مجموعة من البشر ينتمون لهذه الثقافة فى منطقة جغرافية ما أو طبقة اجتماعية ما، وتتميز بمفرداتها وطريقة نطقها، وليست بالضرورة مكتوبة.

النسبية اللغوية

يعتقد بعض علماء اللغويات أن الناس التى تتكلم لغات مختلفة تدرك العالم وتعى الأشياء بصور مختلفة، وعلى سبيل المثال فالكلمة الواحدة التى تصف شيئًا فى الحياة الواقعية ككلمة رمال فى اللغة العربية تولد صورًا عقلية مختلفة عند فردين، أحدهما يعيش فى الصحراء، والآخر يعيش فى الإسكيمو، وأيضًا كلمة beef بالنسبة للإنجليزى والفرنسى. وهذا الاختلاف فى الصور العقلية المتولدة نتيجة طبيعية

لاختلاف التجارب الحياتية والخبرات العقلية. وأيضًا فإن ترتيب الكلمات فى الجملة الواحدة يرتبط بخصوصية القواعد المحددة للغة ما، والتى تعكس خبرات المتكلمين بتلك اللغة فى بيئة محددة.

ولما كانت المعارف هى عبارة عن أفكار موثقة أساسًا فى صورة كلمات وجمل، أى فى صورة تعبيرات لغوية، وتختلف المعارف فى طبيعتها ومادتها ومنهج الحصول عليها، فهناك مثلاً العلوم الرياضية التى تعتمد أساسًا على التجريد والترميز والنظريات والمنطق العقلى، أما العلوم الإنسانية والآداب (الشعر مثلاً) فتتأثر بقوة بالمشاعر والأحاسيس والعواطف التى تتشكل فى وجدان الفرد نتيجة خبرات معينة فى بيئة محددة.

وعلى ذلك أعتقد أن تأثيرات النسبية اللغوية تزيد فى العلوم الإنسانية وتقل فى حالة العلوم الطبيعية، وقد تصل إلى درجة العدم فى حالة العلوم الرياضية.

وعلى ذلك، لايصح أن يخضع الفكر الإنسانى الواسع، وفى كل المجالات والمعارف، لإطار فكر مجموعة واحدة ولغة واحدة مهما كان لها السطوة والقوة فى زمن ما.

* * *

الفصل الثالث

الفن والفنون

عندما يحاول الإنسان أن يجد تعريفًا للفن مستعيدًا لانطباعاته عن الأعمال الفنية وأنواعها، ما شاهده وما سمعه، ومستعينًا بمراجع المتخصصين، يواجه صعوبة حقيقية فى التعريف بالفن الذى يعتبر أحد العناصر البارزة للثقافة . . ويجتهد المرء ويقول إن الفن هو نشاط منظم لأفراد ذوى مواهب خاصة، ولهم رؤية مميزة فى نظرتهم للوجود والعالم من حولهم، بشرط أن يتسم هذا النشاط بالجمال.

وحيث إن كل إنسان ذات متفردة، فهو أيضًا فنان أومتذوق للفن، وإن كان بدرجات متفاوته.

يقول بعض النقاد الأكاديميين بأن الفن هو وسيلة اتصال أو لغة من نوع خاص يختلف عن اللغة التى نعرفها، والتى تبنى من رموز عقلية، فالفن لغة مفرداتها الأصوات التى نسمعها فى الطبيعة والأشكال والألوان التى نراها فى الوجود.

وقد اتفقوا على أن الفنان هو ذلك الإنسان الذى يستطيع أن يظهر موهبته المتميزة ورؤيته الخاصة فى عمل محدد ذى صورة مسموعة أو مرئية، هذا العمل الذى يعطى الفنان والناس التى تشاهد أو تستمع لما أنتجه إحساسًا خاصًا بالجمال أو المعرفة والرضا، مما يثير العواطف ويحرك المشاعر لدرجة قد يقف معها شعر الرأس أو تساقط الدموع.

والفن مارسه الإنسان قديمًا فى أغوار الزمان عندما كان يسكن الكهوف، فعرف الأحجار الملونة وزين بها جسده، ونحت الصخور لعمل السكاكين والحراب، وقام بتشكيل بعضها، ورسم على جدران تلك الكهوف صوراً أولية عن حيوانات البيئة المحيطة، مما يعنى أن الفن هو نشاط إنسانى بالدرجة الأولى، ويميز نوع الإنسان العاقل عن سائر الأحياء.

وعلى العموم، يُبْنَى الفن والجمال على الإحساس والمشاعر والوجدان، وليس على الفكر والذكاء والمنطق العقلانى، وإذا كان الإنسان يشترك مع بعض الأحياء الأخرى فى بعض العواطف، كالحب والكره والسعادة والغضب، فإن مشاعر الإنسان قد ارتقت لدرجة أنه أنتج فنونًا تتصف بالجمال، وعلى ذلك فالإنسان المعاصر ليس الإنسان العاقل فقط، بل الإنسان الفنان أيضًا، فهو يتميز بعقله ويتميز أيضًا برقة مشاعره، وارتقاء أحاسيسه وسمو وجدانه. وليست بالضرورة كل أنواع الفنون موجودة فى ثقافة كل مجتمع إنسانى، ولا الفن الواحد يوجد بنفس درجة التطور فى كل الثقافات، لكن من المتفق عليه أن الفنون بمختلف أنواعها وأشكالها تفى باحتياجات عميقة فى النفس البشرية.

ومع مر الزمان وكر الدهور، تنوعت الممارسات الفنية وارتبطت الفوائد العملية والتطبيقية بالوظيفة الجمالية للمنتجات الفنية، وقد قام المتخصصون بتقسيم أنواع الفنون إلى:

(أ) **فنون جميلة**: وتقتصر على تلك الأعمال التى تثير الإحساس بالجمال، والتى تقسم بالتالى إلى فنون جميلة تشكيلية كالنحت والرسم... وفنون جميلة تعبيرية كالموسيقى والتمثيل والرقص... مثلاً.

(ب) **فنون تطبيقية أو زخرفية**: وهى الأعمال التى تزين وتجمل الأشياء العملية المختلفة، والتى يستعملها الناس فى حياتهم اليومية كالأبنية والأثاث والأوانى من فخار وزجاج وخزف... وغير ذلك.

ويميز المختصون بين نوعين من الفنون، من وجهة نظر أخرى، النوع الأول والأقدم والأكثر انتشاراً بين الناس، وهى الفنون الشعبية التى تعكس روح الشعوب

واهتماماتهم منذ قديم الزمان، مثل الرقص والغناء وسرد القصص والأساطير بمصاحبة الموسيقى أو بدونها، والنوع الثانى من الفنون هو فن المحترفين ذوى المقدرة الإبداعية والابتكارية، والذى يحتاج لتقديره والاستمتاع به إلى قطاعات معينة من المجتمع ذوى المقدرة على تبين الإبداع والابتكار فيه.

وأيضًا يمكن أن تقسم الفنون الجميلة، إلى أعمال فردية يقوم بها فنان ملهم، مثل اللوحة الرائعة أو التمثال المتناسق الأجزاء الناطق بالحركة، أو تكون الفنون أعمالاً جماعية يقوم بها مجموعة من الأفراد الفنانين، مثل الموسيقى الكلاسيكية أو الرقص الجماعى «شعبى أو باليه» . . . والقيمة الجمالية فى الأعمال الجماعية متعددة الطبقات والجوانب، فأنت تعجب براقص أو راقصة فى حركاتها الإبداعية، وترى أيضًا الجمال فى تكامل رقص الأفراد مع بعضهم بعضًا وإعطائهم لوحة متناغمة معبرة لحركاتهم المجتمعة معًا، وترى أيضًا الجمال فى الموسيقى المصاحبة، وعلى الأخص تناسبها مع الصورة المرسومة أمام المشاهد بواسطة أجساد وحركات الراقصين، وتعجب أيضًا بكاتب و(مخرج) هذا العمل؛ لأن رؤيتهم هى الأصول ولولا خيالهم الخصب وتصوراتهم العبقرية وأحاسيسهم الرفيعة ماوجد ذلك العمل طريقه إلى الوجود.

ورغم أن الفنان ذو طاقة خلاقة وعبقرية خاصة، لكنه ابن مجتمعه ويتأثر ببيئته بمفهومها الواسع من جبال وأنهار وغابات وبحار وماء وهواء وأحياء وبشر . . . إلخ، فإن كان شيشكن الروسى يرسم غابات سيبيريا، فإن جويا الإسبانى يرسم جسم الإنسان، ويقوم ليوناردو دافنشى الإيطالى بتصوير ورسم العشاء الأخير للسيد المسيح وحوارييه.

هناك فنانون يشكلون الحجر وآخرون يشكلون الخشب أو الفخار أو المعادن أو العاج . . . وهكذا تبعًا للبيئة التى نشأ فيها الفنان ومواصفات موجوداتها، وقد يستخدم الفنان الطبول فى الغابات أو المزمار على سفوح الجبال أو الكمان والوتريات فى الحدائق والقصور، كل حسب بيئته وطبيعة مجتمعه.

فى مصر القديمة على سبيل المثال، تمثلت الفنون الخالدة فى النقش على الحجر ونحت أشكال الأشخاص وبناء المعابد، كل ذلك بتأثير تضاريس مصر من جهة وبفكرة

الفرعون الإله والحياة بعد الموت من جهة أخرى، وفى أوروبا تأثرت الفنون بالدين تأثرًا بارزًا وخاصة مع بداية عصر النهضة، وقد اتسم فن عصر النهضة فى أوروبا بالواقعية والدقة فى تصوير الواقع كما يراه الفنان (Realism)، وقد تقدم بعض الفنانين فى العقود الأخيرة بتقديم أعمال فنية تعبر عما وراء الواقع من عواطف دفينة أو رؤى خاصة للفنان وسموها السيريالزم (Surrealism)، قد يتقبلها البعض ويرى فيها جمال المعنى الذى يفهمه، وقد يرفضها الآخرون.

وقد تغيرت قيمة الفنان كمواطن فى المجتمع تبعًا لنوع الفن الذى يؤديه والمستوى الثقافى العام فى مجتمعه، وعلى العموم فكلما ارتقت المشاعر ورقت الأحاسيس زادت قيمة الفن فى المجتمع، وهذا مرتبط بطبيعة الحال بقلة الضغوط المعيشية وزيادة الإحساس بالجمال.

الجمـال

إن التميز بين الجمال والقبح سمة من سمات الفطرة الإنسانية، وقد اختلفت الآراء فى توصيف الجمال، وهل هو عبارة عن صفات موضوعية فى الشيء الذى يوصف بأنه جميل، ويمكن تحديدها بصورة موضوعية جامعة متفق عليها، بل يمكن قياسها كميًا، وهنا لا بد من التحديد لهذه الصفات خارجية أو داخلية حسب طبيعة الشيء الجميل - والمقصود بالصفات الخارجية هو شكل الموصوف وتناسب أجزائه وتناسقها - أما الصفات الداخلية، فهى تعنى للمحتوى والمعنى؛ أى الوظيفة المعرفية للشكل الجميل، أم أنه صورة فى عقل الفرد مرتبطة بشخصه وذاته، تلك الصورة التى تؤدى إلى الشعور بالراحة والاكتفاء والسعادة عند الإحساس بالشيء الجميل؛ أى: كن جميلاً ترى الوجود جميلاً!!.

وللجمال علم قائم بذاته ويعتبر أحد فروع الفلسفة وله نظرياته الكلاسيكية والحديثة.

الجمال غاية من غايات الوجود الإنسانى بجانب الحق والخير فى رأى العديد من الفلاسفة، فهو يرفع الروح الإنسانية ويمكنها من النفاذ فى غاية الوجود، ويدفع الإنسان إلى الرضا والسعادة، وعلى ذلك يقولون إن الفن الجميل يوحد روح الإنسان مع الطبيعة والكون فى وحدة واحدة.

هناك اجتهادات لفلاسفة علم الجمال، والتى تقول إن الجمال والاحتياج لا يجتمعان، فإن كنت تحتاج الشىء فيصعب أن يكون حكمك عليه بالجمال صادقًا، وعليك أن تحكم عليه منفصلاً عن احتياجات الحياة، ومن هنا قالوا «لابد أن يكون الفن للفن»، لكن الناس ومنهم الفنان يحتاجون الإحساس بالسعادة، ويحتاجون أيضًا تغيير نمط الحياة والثورة على الموروث أحيانًا، ويحتاجون التنوير والإحساس بالوطن والشعور بالوطنية أحيانًا أخرى، وذلك لتطوير حياتهم ودفعهم نحو الازدهار، كل ذلك وغيره احتياجات يساعد على تحقيقها الرسم الجميل، و الموسيقى المثيرة، والدراما العاكسة لأحداث الحياة.

وتتنوع المتجات والممارسات الفنية بتنوع الشعوب والمجتمعات، ليس فقط لأنها تعكس اختلاف عناصر البيئة المحيطة بالفنان، ولكن أيضًا لاختلاف أسباب التفضيل واختلافات فى الذوق الفنى ودرجة الإحساس بالجمال.

يقول بعض المشتغلين بفسيولوچيا الحواس، وسيكولوچيا التذوق الفنى بأن البيئة والذوق مرتبطان ارتباطًا وثيقًا، فإن سكان الصحراء تحت أشعة الشمس الساطعة معظم الوقت يصعب عندهم تدريب حاسة البصر على التميز بين الألوان وجمالها فى الطبيعة أو فى الصورة، وعلى ذلك يكون إحساسهم بالألوان ودرجاتها المتعددة متدنيًا أو يكاد يكون مفقودًا، بعكس آخرين يعيشون فى وسط الزروع والمروج والغابات بأزهارها وورودها المتنوعة الأشكال والألوان، بجانب قلة الضوء وغياب أشعة الشمس فترات طويلة من ساعات اليقظة، كل ذلك ينمي المقدرة على التمييز بين الألوان وكذلك التميز بين درجات اللون الواحد.

ولا شك أيضًا أن أصوات الطيور بأنواعها المختلفة فى البيئة الغنية بالطيور الصداحة متنوعة الأصوات تساعد على تدريب حاسة السمع عند البشر للتميز بين النغمات وتذوق التناغم بينها!

وكما سبق أن ذكرنا فالفن مرتبط بالأحاسيس التى تثير العواطف، ولكن هذه الأحاسيس إذا وجدت بالفطرة فى شخص ما، فإنه يحتاج إلى التدريب والمعرفة للتميز بين مكونات وتفاصيل العمل الفنى، ولذلك يقول بعض المفكرين أن التذوق الفنى

مرتبط إلى حد ما بالمعرفة، فالإنسان يرى فقط ما يعرف ! فإذا نظر شخصان إلى لوحة واحدة فإن كلاً منهما يرى فيها ما هو مرتبط بخلفيته المعرفية ودرجة نمو أحاسيسه وتذوقه لمحتويات اللوحة.

ترتبط الفنون والوعى بها وإنتاجها وتذوقها بالنمو الوجدانى للفرد، ذلك الجانب من النفس الإنسانية التى يتعين البحث عنه فى ثنايا العقل وإثارته وتربيته وتنميته بوسائل تعليمية متنوعة، وخاصة فى سنوات العمر الأولى(الرسم-الموسيقى-الأشغال اليدوية).

إن تدريب العقل على تبين الجمال فى مختلف جوانب الحياة، وتذوقه وتقييمه لا يعتبر فقط إنعاشًا للمشاعر وتزكية للنفس، بل عاملاً مهمًا فى اكتشاف الحقيقة وزيادة المعارف العلمية، وذلك حيث إنه فى أدق العلوم البحثية يعتبر الكثير من العلماء مؤخراً أن جمال المعادلة الرياضية، مثلاً، والشعور بالسعادة والارتياح عند مقارنتها بأخرى فى نفس الموضوع يعتبر دليلاً على سلامتها أو تميزها من الناحية المنطقية والمعرفية؛ أى إنه أصبح من المعترف به أن جمال المعلومة أحد دلائل صحتها. وربط الجمال بالمعرفة أحد مجالات البحث لكثير من المتخصصين فى العقود الأخيرة.

وهناك أيضًا من الناس من لايفيد معه التدريب، بل يهرب منه نتيجة لسيادة اهتمامات أخرى.

والأحاسيس كما هو معروف ليست هى الرؤية والسمع فقط، بل هناك الشم والتذوق واللمس، وعلى ذلك فالتمييز بين الروائح وصناعة العطور فن، والطبخ وتذوق الأطعمة والمشروبات فن، وتمييز المادة باللمس فن أيضًا.

وكما أن هناك من الفنون ما يثير أكثر من حاسة، كالرقص الشعبى مثلاً يجمع بين جمال الصورة المرئية، وجمال الموسيقى المسموعة، فإن هناك من الفنون ما يجمع بين الجمال الحسى وجمال المعنى والمضمون، وعلى سبيل المثال يمتاز الفن الإسلامى بالربط بين الشكل الجمالى والمعنى العقلانى، حيث يقوم هذا الفن على تشكيلات الحروف العربية والكلمات، وخاصة المستمدة من القرآن الكريم فى الزخرفة والتزيين والإمتاع الحسى والعقلى معًا.

ويمكن القول بأن القيم الجمالية تختلف باختلاف الشعوب، وتعبر تلك الشعوب بصور متعددة عن تلك القيم الجمالية فى الأزمان المختلفة، وعلى سبيل المثال فشهرة الفرنسيين فى الرسم (سيزان ورينوار . . .) قد توازى شهرة الألمان فى الموسيقى (بتهوفن وفاجنر . . .) .

اختلاف المعايير الجمالية

يعتقد كثير من المفكرين أن معايير الجمال ترقد عميقًا فى النفس الإنسانية فى كل المجتمعات بغض النظر عن الفروق فى الطبقات الاجتماعية أو الثروة، لكن معايير الحكم على الجمال فى بعض المجتمعات تختلف عنها فى مجتمعات أخرى؛ لأنها مرتبطة بتنوع الأشياء الجميلة فى البيئات المختلفة .

وفى كل الأحوال ما يعتبر جميلاً فى مجتمع ما لا يعتبر قبيحًا فى مجتمع آخر، ولكنَّ هناك جميلاً آخر، بمعنى أن الاختلاف فى تقييم الجمال بين المجتمعات المختلفة هو لتنوع عناصر الجمال؛ أى إن الاختلاف للإضافة وليسْ للتصادم .

يصعب أحيانًا الفصل الواضح بين الفنون والآداب، حيث إن الشعر مثلاً من الأدب والغناء من الفن، والغناء والشعر متلازمان؛ وجود أحدهما يؤكد وجود الآخر، وكذلك القصة والرواية برغم أنهما نثر وأدب لكنهما يعبران عن روح الكاتب ومشاعره وأحاسيسه، والكاتب يعبر عن رؤيته الخاصة بأسلوب قد يدفع المتلقى إلى الرضا والإعجاب، وخاصة إذا أُضيفت إلى النص عناصر تعبيرية أخرى كالحركة ونبرة الصوت والتمثيل، وعلى ذلك فهناك أساس لمن يضمون هذه الصور الأدبية للفن، رغم أن البعض يعتبرها آدابًا تعتمد على اللغة ووسائلها من كلمات وجمل، مما يعنى أن التقسيم ليس للفصل وإنما للترتيب والتنظيم لتسهيل النقل من جيل إلى جيل ومن فرد لآخر .

* * *

الفصـل الرابـع

الـدين

أقول فى البداية إنى رجل مسلم، ولكن لست رجل دين محترف فى أحد فروع العلوم الدينية من أصول فقه أو تشريع . . ولا أقصد بما أكتب فى هذه السطور أن أدعو إلى دين معين وأبين فضائله وسموه . . ولكن ما أعرضه فى هذه الصفحات القليلة، هو مجرد رؤية عامة أكاديمية لظاهرة الدين كأحد عناصر الثقافة فى المجتمعات الإنسانية؛ بل هو عنصر أساسى فى الشبكة الثقافية لكل مجتمع، ويرتبط بالعناصر الأخرى من لغة وفنون وعادات وتقاليد بدرجة قوية، وهناك تأثير متبادل وفاعل بينه وبين تلك العناصر.

واعلم أن التعرض لموضوع الدين من هذه الزاوية الأكاديمية الأنثروبولوچية المحضة هو اجتهاد نادر فى ثقافتنا، ويتجنبه الكثيرون بغير حق وبدون سبب مشروع، فديننا متين وكل الرسل والأنبياء، والدعاة الدينيين وأصحاب العقائد، والمذاهب المعنوية، والأخلاقية المعتبرة فى تاريخ الإنسانية كلهم من الشرق!! فهذا حقنا ونحن أولى الناس بالتعرف عليه ودراسته.

إن التغيير الذى حدث فى العالم مع بداية القرن الواحد والعشرين، وظهور الاتهام الظالم من آخرين بأن أتباع الدين الإسلامى أعداء للحياة وإرهابيون، يدعونا بإلحاح إلى تفهم جميع وجهات النظر، والانفتاح على الأفكار العلمية البحتة عن الدين كأهم العناصر الفعالة فى معظم الثقافات.

كل البشر (الإنسان العاقل ـ Homo sapiens) رغم اختلاف الأصول العرقية والمكان والزمان، لهم تصور ما عن الكون والوجود والطبيعة، والحياة و الموت، ودور الإنسان فى هذا كله . أدرك الإنسان أن النجاح و الفشل فى أدائه لعمل ما، يرتبط بمدى معرفته بكيفية أداء هذا العمل و الدقة فى تنفيذ خطواته ؛ لكنه أدرك أيضا أن هناك الكثير من الأحداث غير المتوقعه أو غير المفهومة وتخرج عن سيطرة البشر، كالمرض والموت والعواصف والزلازل والفيضانات . . . وغير ذلك، وقد تؤدى إلى نجاح أو فشل أعمال الناس ـ وعلى ذلك أدرك الإنسان وجوداً قويًا وراء الطبيعة أو فوق الطبيعة المحسوسة والمعقولة، هى التى تتحكم فى هذه الأحداث ونتائج الأعمال •

وتباين المجتمعات البشرية فى تصورها ومعتقداتها عن تلك القوى فوق الطبيعية، فبعضها يقول إنها شعور عام وغير مشخص فى ذات محددة، بل قوى متشرة فى الوجود كله من كواكب ونجوم وأحجار وأنهار وأشجار وحيوان وإنسان، ولها مسميات متنوعة ويعتقد البعض الآخر أن تلك القوى فوق الطبيعية هى ذات محددة فى صورة آلهة . وقدسبق التصور الأول التصور الثانى فى الوجود، وإن كان له بقايا فى بعض المعتقدات المعاصرة، وهناك من المعتقدات ما يجمع التصورين معا .

ويقول المختصون : إن التصور الأول يعكس المعتقدات الأولية للإنسان البُدائى ويتصف مفهومه العقائدى بعدم وجود حدود فاصلة بين عقل الإنسان والعالم المحيط به، أو بين الجسم والروح أو بين الحلم والحقيقة، بل إن هناك التحامًا وانصهارًا بين كل هذه الجوانب فى بعضها البعض ؛ وعلى ذلك فالقوى فوق الطبيعية منتشرة فى كل شىء بصورة غامضة، وقد تكون إيجابية فتساعد الإنسان على تحقيق ما يرغب أو تكون سلبية فتمنع الفوائد وتزيد النكبات ؛ ونصيب الأفراد من هذه القوى ونوعها يتفاوت، وعلى ذلك فالدين (العبادات)كنشاط نوعى للإنسان لا وجود له فى تلك المجتمعات ؛ لأن كل شىء وكل حدث عندهم متشرب بالقوى فوق الطبيعية، ومن واجب كل فرد أن يحرك تلك القوى للعمل لصالحه بممارسات متنوعة، مثل تقديم الأضحية أو الغناء والرقص والاحتفالات المقدسة . ولا يوجد فى تلك المجتمعات البُدائية شرائع مكتوبة تسجل معتقداتهم، وتلقى الضوء على ضمائرهم المرشدة لسلوكهم، بل أساطير يتناقلها الناس والأجيال، ويقول المتخصصون : إن تلك الأساطير قد تكون شروحًا

بُدائية لظواهر الطبيعة، وتعبر عن عمليات نفسية فى اللاوعى تهدف إلى توجيه واستمرار الحياة.

ظهر الدين كما نفهم اليوم فى المجتمعات البشرية بعد الثورة الخضراء واستقرار الإنسان حول الأنهار بعد تركه لحياة الصيد، وقام بزراعة طعامه وتربية حيواناته، وتم توزيع العمل وتنظيم التعاون بين أفراد المجموعة لإنجازه • كل ذلك أدى إلى تطور وسائل الاتصال بين الناس وخاصة اللغة، فزادت المفردات والأعداد والعلامات والرموز، ووضعت القواعد لاستخدام هذا كله، وساعد ذلك على تشكيل وتطوير فهم الإنسان وإدراكه للوجود.

أصبحت القوى فوق الطبيعية فكرة متماسكة ومنظمة وموحدة فى ذات واحدة، تتميز بالمقدرة والحكمة الفائقة والخلود . من هنا ظهرت فكرة الألوهية، وأصبح الإنسان مهيئًا لاكتشاف وإدراك وجود الإله، لكن فكرة الألوهية تباينت بين المجتمعات البشرية على مر الأزمان، ومنها الاعتقاد فى الإله الواحد (الديانات السماوية الثلاث ـ اليهودية والمسيحية والإسلام)، أو الإلهين (إله للخير وإله للشر كما فى الديانة المانوية) أو آلهة متعددة (مصر الفرعونية وبلاد الإغريق والرومان)، أو الإله الواحد ذى الأوجه المتعددة (زرا دشت وكثير من العقائد الأسيوية).

على العموم، لا يوجد اتفاق عام على تعريف محدد واضح لمصطلح الدين بعيدًا عن أصوله اللغوية، ولكن يمكن التعرف على ماهية الدين من خلال التعريفين العامين الآتيين :

(أ) الدين : هو استجابة فطرية لحاجة الإنسان لإدراك منظم للكون، وحتى تكون هناك آلية فعالة لتهدئة القلق والغموض، والخوف الذى يواجه الإنسان لعجزه عن توقع أو تفسير الظواهر، والأحداث التى لا تتفق مع معارفه المحدودة عن الطبيعة وقوانينها.

(ب) الدين : هو نظام حياة يبنى على علاقة الإنسان بالوجود، ذلك الوجود الذى خُلق بترتيب مقدس بواسطة قوى فوق طبيعية، والإيمان بوجود شفرة لهذا الخلق وذلك الترتيب، فى كتب مقدسة، سواء من وحى الإله أومن وضع الإنسان. وحتى يكون هذا النظام دينيًا لابد من توافر ثلاثة عناصر رئيسية :

١ـ العقيدة: كما نفهم اليوم، هى ما استقر فى العقل وارتضته النفس كفهم أو نظرية عامة للوجود والطبيعة وما وراء الطبيعة، ودور الإنسان فى الحياة والغاية النهائية من وجوده.

٢ـ الشريعة: وهى مجموعة القواعد والتعاليم التى تنظم وتضبط سلوك وحركة الإنسان فى العالم المحيط، ومسجلة فى كتب مقدسة تتناقلها الأجيال والأفراد.

٣ـ العبادات: وهى مجموعة الممارسات والأفعال التى تؤكد العقيدة والشريعة، وتؤدى إلى إظهارها وتواصلها بين الناس، وهى فى النهاية طريق إلى وحدة الجماعة وتماسكها الاجتماعى.

النظرة الموضوعية تتطلب أن نلقى بعض الضوء على بعض المعتقدات والتعاليم عن الكون والموجودات والإنسان وعلاقاتهم، والتى ظهرت بين شعوب قارة آسيا وانتشرت بين ملايين البشر الذين يشاركوننا الحياة على هذا الكوكب لمئات، بل لآلاف السنين، ومن أشهرها الهندوسية والبوذية.

طبقًا للتعاليم الهندوسية فإن كل ما نحسه وندركه عن العالم والوجود من أشياء وأحداث ما هو إلا أوهام؛ وذلك لأن قيود الفكر واللغة لاتسمح للإنسان بغير رؤية العالم والوجود كأشياء منفردة أو أحداث منفصلة، وحتى يسهل استيعابها، يقوم الإنسان بوصفها وتحديدها، بل وقياسها كميًا، وهذا لا يتفق مع الحقيقة النهائية فى رأيهم، وهى أن الوجود وحدة واحدة مترابطة بدليل أننا لاندرك الشىء إلا بوجود نقيضه، فلا وجود للذة إلا بوجود الألم، ولاوجود للسعادة إلا بوجود الشقاء، ولاوجود للحياة إلا بوجود الموت. . . وهكذا، وأن القوى فوق الطبيعية وروح الإله موجودة فى جميع الأجزاء من أحياء وغير أحياء. وإذا سألت الهندوسى أن يحدثك عن وحدة الوجود وماهيته الحقيقية النهائية فى نظره، يصمت أو يرد بلا أعرف؛ لأن ما سأقوله كلمات من عمل العقل الإنسانى وكلها أوهام، ولكن يمكن أن تعيش الحقيقة النهائية بممارسة الشعور العميق والتأمل النافذ بما يسمى (اليوجا).

كان طبيعيًا أن يظهر داعية مثل جوا تاما بوذا، وفى الهند أيضا، ويحاول أن يشرح ويبسط الهندوسية بتعاليمه التى أطلق عليها(البوذية) والتى انتشرت خارج الهند

واتبعها كثير من شعوب شرق آسيا فى الصين واليابان وكوريا . . وغيرها يقول بوذا (الرجل المستنير) إن عذابات الإنسان وآثامه ناتجة عن أنانية الإنسان وشهواته، وجهله بالنسبية الكاملة للأشياء والأحداث. . ويدعو بوذا إلى التطهر الأخلاقى والسمو النفسى لذاته بدافع من إرادة الفرد بدون رجاء فى جزاء أو خوف من عقاب، وتتجنب البوذية، مثل الهندوسية، وصف الحقيقة النهائية أو التعرض لإله خالق أعظم .

وهناك أيضا من يعتقدون فى تناسخ الأرواح فى المخلوقات بشرًا أو حيوانات، ثوابًا وعقابًا على هذه الأرض.

على ضوء معارفنا المعاصرة عن القوى فوق الطبيعية، والعقائد والتعاليم والمذاهب وكتبها المقدسة التى ظهرت، وما زالت منتشرة بين المجموعات البشرية على ظهر هذا الكوكب، يمكن قصر مصطلح الدين على ثلاث عقائد فقط هى(الإسلام والمسيحية واليهودية)والتى نصفها بأنها ديانات سماوية، ويصفها البعض بأنها ديانات إبراهيمية (نسبة إلى إبراهيم أبى الأنبياء) مستلة عن بعضها البعض. وهى ترتكز على المفاهيم الرئيسية التالية :-

١ـ هناك قوة عليا فوق طبيعية واحدة قادرة خالقة ومسيطرة على هذا الكون، هو الله أو الرب.

٢ـ هناك بدن وهناك روح للإنسان، البدن قد يفنى ولكن الروح خالدة • والبدن يعطى الإنسان شكله ومكوناته المادية، أما الروح فتعطى للإنسان شخصيته وما يعرف بالكاريزما الخاصة به.

٣ـ هناك بعث وحياة أخرى بعد الموت.

٤ ـ هناك ثواب وعقاب فى تلك الحياة الأخرى على ما قام به الفرد فى حياته الأولى، والثواب والعقاب يتطلبان تعريفًا متفقًا عليه للصواب والخطأ، وكيفية التميز بينهما وفهمًا واضحًا للحلال والحرام وحدودهما، وكل مجتمع يكوّن لنفسه مجموعة من القيم، أويبنى نظامًا أخلاقيًا، مستمداً من عقيدته الدينية وتاريخه الاجتماعى، يساعده على التميز بين الخير والشر وينير له الطريق ويعصمه من الخطأ.

وهناك من المجموعات البشرية من يعتقد فى الحياة الأخرى، ولكن ليس بها ثواب ولا عقاب، بل نعيم مقيم حيث يكفى ما لاقاه الإنسان فى حياته الأولى، وهذه المعتقدات إقليمية محدودة فى مجموعات قليلة العدد نسبيًا؛ وليس لها كتب مقدسة (قبائل الأزتك والأنكا من الهنود الحمر).

ورغم اختلاف المجموعات البشرية فى درجة النمو والتقدم العلمى والتكنولوجى، فإن الإنسان لم يصل حتى اليوم للثقة المطلقة فى نتائج سلوكه وأفعاله، ولذلك يبقى الدين عنصرًا رئيسيًا فى معظم الثقافات.

وعلى ضوء واقعنا المعاصر، نلاحظ أن للدين وظائف اجتماعية مهمة بجانب الوظائف الأخلاقية المعنوية المصقلة للضمير والموجهة لطبيعة العلاقة بين الإنسان وخالقه. ومن هذه الوظائف والنتائج الاجتماعية مايلى:

١ـ يساهم بصورة فاعلة فى وضع قيم ومعايير وقواعد تساعد الإنسان على تنظيم وتحسين حياته

٢ ـ يساعد الإنسان على تحمل كارثة الموت للأحباء والأقرباء.

٣ـ تنوع العقائد يؤدى إلى التدافع التنافسى لإصلاح حال الناس.

٤ ـ يضفى نوعًا من التقديس لمراسم الزواج، هذا الحدث المهم فى حياة الفرد والوسيلة المتفق عليها لاستمرار بقاء المجتمع.

٥ ـ تؤدى الاحتفالات الدينية إلى نوع من التواصل الثقافى بين الأجيال.

٦ـ يضفى نوعًا من الجمال على النشاط الإنسانى الهادف إلى الخير معنويًا، ويدفع إلى تطوير الفنون من موسيقى وغناء ورسم وبناء وزخرفة . . . إلخ.

٧ـ يلاحظ أنه فى المجتمعات الفقيرة، يطلبون من الله مباشرة أن يفعل لهم ما يريدون بما يؤدى إليه ذلك من تواكل وقبول ببعض مظاهر الظلم الاجتماعى كقدر ليس فيه للإنسان دخل للعمل على إصلاحه. أما فى المجتمعات الغنية فيطلبون من الله المعرفة والمقدرة على أداء العمل للحصول على ما يحتاجون.

٨ ـ يلاحظ أيضا فى المجتمعات الغنية أن دور المعنويات والأخلاقيات يتقلص فى الاقتصاد والمال، بما يؤدى إليه من فراغ عقائدى روحانى يزيد الإحساس بعدم الأمان والضياع أمام الأزمات وكوارث الطبيعة.

٩ـ يلاحظ أن العلاقات بين الأفراد والمؤسسات الدينية فى المجتمعات الغنية أكثر تنظيمًا وقوة، وترتبط هذه المؤسسات مع بعضها البعض على المستوى الدولى ارتباطا وثيقًا وخلافًا بعكس ما يحدث فى الدول الفقيرة.

١٠ـ يلاحظ تناقص إنكار متع الحياة المادية كهدف لحركة الإنسان فى المجتمعات الغنية، حيث إن الإنسان فى المجتمعات الفقيرة يتسم بالزهد فى متع الحياة وإنكارها كهدف؛ وذلك لسببين رئيسين:

(أ) متع الحياة تتطلب المبالغة فى الأنانية وإشباع الشهوات مما يؤدى إليه ذلك من شراهة وطغيان وإفساد للحياة .

(ب) فقر الحياة وصعوبة تغييرها يدعو إلى الزهد فى متعها حيث إن ذلك هو الوسيلة الوحيدة للتوازن النفسى واستمرار الحياة.

من الملاحظ أنه نتيجة لتنوع الممارسات الدينية والعبادات على خلفية من تنوع البناء الثقافى بين المجموعات البشرية، قد يظن البعض أن دينه يمتاز عن الأديان الأخرى، ومن بين هؤلاء البعض من يبحث فى الأصول ويبرز نقاط الخلاف، والتى ظهرت فى فترات زمنية متنوعة وظروف حياتية مختلفة، ولأسباب نفسية يجمع نقاط الخلاف هذه ويتعصب لها مدعيًا بأنها الحق كله، وما يؤدى إليه ذلك من انغلاق فكرى، متناسيًا نقاط المشاركة العديدة، وخاصة بين الديانات السماوية الثلاث، ومتناسيًا كذلك النقاط المشتركة العديدة المرتبطة بأعماق طبيعة النفس الإنسانية.

الدين والسحر والعلم

تبقى كلمات قليلة عن العلاقة بين الدين والسحر، فقد اتفق كثير من الباحثين على أن الدين من وجهة ما، هو التسليم بوجود قوى خارقة فوق طبيعية هى التى تخلق

وتقود الظواهر الطبيعية، وعلى الإنسان أن يطيع تلك القوى ويؤمن بها ويتجنب سخطها حتى يعيش الحياة آمن البدن، ويهيئ لروحه الرخاء فى الحياة الدنيا وما بعدها.

أما السحر، فهو محاولة الاستخدام المباشر لتلك القوى فوق الطبيعية عن طريق ممارسات غريبة وآليات سرية لجلب المنفعة أو إلحاق الضرر. وقد مارست ـ تقريباً ـ كل المجتمعات البشرية السحر، وفى كثير من الأزمان بواسطة أفراد يضفى عليهم المحيطون بهم صفات مميزة، وذلك للوصول إلى الهدف مباشرة دون الالتزام بقواعد الطبيعة المتاحة للجميع، والتى وضعتها تلك القوى العليا.

أما العلم، فهو البحث عن المعارف الحقيقية؛ عن الطبيعة وظواهرها وتنظيم وتحليل هذه المعارف بما يساعد على تطبيقاتها. وسأقوم فوراً فى الصفحات القليلة اللاحقة بعرض مختصر عن العلم كعنصر من عناصر الثقافة.

* * *

الفصل الخامس

العلم والبحث العلمى

ما العلم ؟وهل كل معرفة تعتبر علمًا؟ أم أن المعارف درجات بعضها علم والبعض الآخر أرقى وأرفع من العلم فى المصدر وفى المعنى وفى الغاية، كالحدس والإلهام فى حالات الصفاء الذهنى النورانى؟ والبعض الثالث من المعارف أضعف من العلم قيمة وأقل نفعًا؛ كالتقليد والخرافة؟

لقد تعددت الاجتهادات فى مختلف الثقافات، وعلى مر الأزمان وحتى اليوم لتعريف ذلك النوع من المعارف، والذى يمكن أن نطلق عليه مصطلح العلم. قال أحد مفكرى ثقافتنا العربية الإسلامية (أبوحيان التوحيدى ٩٨٠م) بأن «العلم هو صورة المعلوم فى عقل العالم»، وهنا تظهر واضحة السمة اللغوية للتعريف دون الدخول المباشر فى المضمون الفكرى للمصطلح. وما أقصده بالسمة اللغوية هنا ليس فقط ما يتصل بالصرف اللغوى ودلالات الألفاظ من علم ومعلوم وعالم، بل أيضًا ما يتصل بالتعبير اللغوى عن صورة المعلوم، هذه الصورة المرتبطة بالبيئة التى نشأ بها العالم وطبيعة اللغة التى يعبر بها (راجع الجزء الخاص باللغة). ويشد الانتباه فى هذا التعريف، التمييز بين صورة المعلوم فى عقل العالم وصورته فى عقل الإنسان العادى من الناس كافة؛ إذ لو كانت الصورة واحدة فى الحالتين لقال فى عقل «الإنسان» أو «الشخص».

وهناك تعريف آخر من ثقافتنا أيضًا (إخوان الصفا وخلان الوفا ـ القرن الرابع الهجرى) يقول: «إن العلم حالة وسط بين كامل اليقين من جهة واليأس من معرفة الحقيقة من جهة أخرى». وهذا التعريف يلتمس القصور فى عمل العقل البشرى (المخلوق) للوصول إلى حق اليقين، ولكن الإنسان لاييأس من محاولة البحث عن كامل الحقيقة ومعارفه فى أثناء هذه المحاولات هو العلم.

من أكثر التعريفات المعاصرة قبولاً هو تعريف المفكر والفيلسوف النمساوى كارل بوبر (١٩٠٢) والذى يمكن تلخيصه فيما يلى: «العلم (فى تخصص ما) هو مجموعة من المعارف المنظمة فى نسق خاص يسمح بالنقد والتحقق من مدى زيفها أو صدقها، ومن ثم تجويدها مع تراكم الخبرة بما يساعد على الاقتراب التدريجى لتلك المعارف إلى كامل الحقيقة». ويؤكد بوبر أن المعارف العلمية ذات طابع افتراضى وقابلة للخطأ، والصدق فيها نسبى. والتعريفان الأخيران مشتركان فى المضمون الفكرى إلى حد بعيد.

وإذا نظرنا إلى تطور المعرفة العلمية واجتهادات المختصين فى هذا المجال، نجد أنه خلال القرن العشرين على الخصوص، زاد عدد المشتغلين بتاريخ العلم، والباحثون فى طبيعة المعرفة العلمية وتطور ما يسمى بالفكر العلمى، وكون هؤلاء الجمعيات المحلية والدولية لهذا الغرض، وامتد الاهتمام من تاريخ العلم إلى فلسفة العلم والنظر والتحليل للدور الاجتماعى والاقتصادى والنفسى للمعرفة العلمية، وكثرت الاجتهادات وتنوعت الشروح والتفسيرات بشأن المناهج العلمية ومشكلاتها بين مؤرخى العلوم الإنسانية من اجتماع وقانون وعلم نفس. . . ومؤرخى العلوم الطبيعية من فيزياء وكيمياء وعلوم حياة.

هناك بعض المفكرين الذين ينكرون وحدة تاريخ البشرية والنظر إليها كسلسلة متصلة من الأحداث والإنجازات المتراكمة بعضها فوق بعض، بل ينظرون إلى التاريخ الإنسانى كمجموعات من الأحداث تفصلها عن بعضها البعض ثورات حقيقية، وتحدث هذه الثورات عندما يرى قطاع من المجتمع أن المؤسسات القديمة لم تعد تفى على نحو ملائم بحل المشكلات القائمة، والتى ساهمت فى خلقها أو كانت على الأقل طرفًا فى خلقها، وعلى ذلك فإن هذه القطاعات تثور على المؤسسات القديمة وتلجأ للالتزام بمؤسسات جديدة قد تكون متناقضة تمامًا مع القديمة.

وكذلك فى التطور العلمى يرى البعض أن النشاط العلمى فى مرحلة ما، يلتزم بنموذج استرشادى يحدد وسيلة جمع البيانات وطريقة التعامل معها وتحليلها واستنباط دلالاتها، وعندما يعجز هذا النموذج فى الإجابة عن حالات خاصة أو جديدة، تقوم الثورة عليه وبناء نموذج استرشادى جديد يتناقض تمامًا مع سابقه ولا يمكن قبوله إلا بالتسليم بخطأ سابقه، ويضربون على ذلك الأمثلة، كالتغيير من مفهوم مركزية الأرض إلى مركزية الشمس والتغيير من نظرية الفلوجستون إلى نظرية الأكسجين، والتغير من ميكانيكا نيوتن إلى ميكانيكا أينشتين (نظرية الكم). . وهكذا؛ أى إن الثورة العلمية هى تغيير شامل لشبكة المفاهيم التى يرى العلماء العالم من خلالها.

وهناك الكثير من العلماء المتخصصين الذين يعتقدون بأن التطور العلمى هو عملية تراكمية للمعارف، فيأتى الجيل الجديد ومعه من المعارف (وأيضًا التحديات) أكثر مما أتيح للجيل السابق، فيضيف الجديد من المعارف ويحاول أن يحل المشكلات القائمة، ويوسع الإدراك بطبيعة الأشياء والحياة والعالم بصورة أشمل، كما يعمق الفهم ويزيد المعارف دقة وانضباطًا عما كانت، ومن طبيعة التراكم المعرفى أن الجديد لا يدعى أن القديم خاطئ أو أن حججه عقيمة غير فعّالة، بل إن الجديد ينمو من بذور وجذور قديمة، كما أنه يعالج الحالات المستعصية كالحالات الشاذة أو الظواهر الجديدة أو جوانب جديدة لظواهر قديمة، والتى لم تكن معروفة ولم يسبق أن تبينها أحد من قبل.

وأعتقد أن الفهم الثورى لتطور العلم يتفق مع مزاج الإنسان الأوروبى الذى يميل للفصل والتمييز بين الأجيال وإنجازاتها، ويميل أيضًا إلى تعبيرات الصراع والثورة بدلاً من التفاعلات بين مختلف عناصر الوجود.

وأنا لا أنكر الطفرات فى الفكر الإنسانى، ولكن أعتقد فى تراكم المعرفة العلمية كقاعدة للتطور العلمى فى جوهره؛ لأن فكرة التراكم تتفق مع النظرية التى تقول بأن المعرفة ما هى إلا بناء ذهنى أو معنى يضفيه العقل على المعطيات الحسية، وحتى يكون هناك بناء لابد له من أساس وهيكل. . . إلخ، ويتم هذا البناء على مراحل على مدى الزمان. ومن الصعب أن أقدم عرضًا وافيًا عن كل هذه الأفكار والتطورات عن العلم والتفكير العلمى لطبيعة ما أكتب الآن عن العلم كأحد عناصر الثقافة لغير المتخصص، وما سأعرضه فى الصفحات التالية سيكون فى صورة مكثفة وعامة.

ولنبدأ القصة من أولها؛ فمع وعى الإنسان بذاته وبيئته وإدراكه لما حوله فى مراحل ارتقائه الفكرى الأولى، تولدت عنده رغبة ملحة فى فهم ما يجرى حوله من ظواهر طبيعية وفى السعى إلى تفسيرها !!

أين تذهب الشمس فى المساء ؟ لماذا يتغير شكل القمر ؟ من أين تأتى الرياح ؟ كيف ينبت الزرع ؟ من أين أتى الإنسان ؟ ولماذا يمرض؟ وما هو المصير؟ هكذا مئات، بل آلاف الأسئلة أصبحت الشغل الشاغل لعقل الإنسان كلما فرغ من طعامه وبدأ يتأمل وجوده.

تباينت الرؤى والتفسيرات فى مختلف الثقافات وعلى مر العصور والأزمان، وفى البداية تداخلت الأحلام والأوهام مع الواقع والطبيعى وما يدرك، وأيضا مع فوق الطبيعى أوما وراء الطبيعى، وتداعت الأساطير والخرافات للشرح والتفسير، وتم ربط الظواهر الطبيعية بقوى خفية أو ببعضها البعض نتيجة التوافق فى مكان أو زمان الحدوث، وتراكمت كميات هائلة من المعارف المنقولة شفاهًا بين الناس، وخاصة بين الشعوب الشرقية، وجاءت النقلة النوعية فى تفسير ظواهر الطبيعة عندما بدأ فلاسفة الإغريق القدامى يقلبون الفكر فيما نقل إليهم من معارف عملية هائلة من مصر والشرق على العموم، وتم اللجوء إلى منهج فكرى على أسس المنطق العقلى الذى يرتكز على بعض البديهيات العقلية المتفق عليها، والتى لا يمكن دحضها فكريًا وذلك بغرض الشرح والتفسير .

لقد فطن العقل البشرى إلى الحاجة لمنهج ذى مواصفات محددة لجمع المعارف العلمية والتحقق من أن ما يعرفه مطابق للحقيقة، وفى هذا السبيل تطورت المناهج وطرق التحقق وإقامة الدليل والبرهان على صدق المعرفة العلمية فى عدة مراحل، نعتقد أنه بالإمكان تلخيصها فيما يلى :

المرحلة الأولى الوصفية

وهى مرحلة الترتيب والوضوح الكامل فى مواصفات الظاهرة، وكلما كان الوصف واسع الانتشار بين الناس ومتفقًا مع المنطق العقلى السائد كان هذا برهانًا على

صدقه، وتم وضع الكثير من النظريات والقواعد فى مختلف المعارف الطبيعية، لكن طرق تسجيلها ونقلها للأجيال اللاحقة لم يكن سهلاً ميسراً . بل كان يتم النقش على الحجر أو الألواح الطينية (وفيما بعد على أوراق البردى والجلود) مما يحد كمية المعارف التى يتم تسجيلها ويعوق نشرها بين الناس أو حفظها فى أماكن خاصة .

ومن المعروف أنه عندما تنتقل المعارف من منطقة جغرافية ما ذات مواصفات طبيعية خاصة و يسكنها بشر ذوو مواصفات تشريحية وعقلية خاصة إلى منطقة ومجتمع ذى مواصفات أخرى، فإن ثمار تلك المعارف تتنوع ويظهر الجديد بمواصفات جديدة . هذا ما حدث على سبيل المثال عندما انتقلت المعارف من مصر وبلاد الرافدين إلى اليونان قبل مولد السيد المسيح، واستطاع الإغريق من ترتيب تلك المعارف الحياتية العملية وإخضاعها للمنطق العقلى، وتنظيرها فى صورة نظريات وقواعد تعكس فهم الإنسان، ولم يقف عمل العقل عند استقبال المعلومات وترتيبها وتخزينها واستدعائها عند الحاجة، بل امتد نشاطه ليشمل الربط والتحليل لتلك المعلومات، والاستقراء والاستنباط لمعارف جديدة نتيجة لذلك .

وعندما انتقلت المعارف والنظريات الإغريقية إلى العرب والمسلمين بعد ظهور الإسلام، ومع العديد من المعارف المنقولة من بلاد الفرس والهند والصين، حدث تفاعل خلاق ونضجت المرحلة الوصفية، وخاصة مع تطور اللغة وانضباطها، وتحسنت وسائل التسجيل على أوراق البردى والجلود وغيرها واخترع الصينيون الورق(*)، كل ذلك أدى إلى فجر منهج علمى جديد على نور من الحضارة العربية الإسلامية البازغة، وأخذت المرحلة الوصفية أبعاداً جديدة؛ إذ تم التركيز على أهمية دقة الملاحظة الواقعية، وتمت الإشارة إلى أهمية التجريب، وتم التنبيه على أن الحكم على الظاهرة يكون بالأكثرية أو بالأغلب الأعم، وعند المقارنات بين المعلومات يجب الالتزام بشروط فى عينة الضبط، كمظهر لبوادر جديدة لعلوم البصريات والكيمياء والطب

(*) يعتبر اختراع الورق من أعظم الاختراعات التى عرفتها البشرية، وجاء على يد أحد أفراد حاشية إمبراطور الصين ويدعى تسى أى لون ١٠٥م، وقد انتقلت صناعة الورق إلى العرب خلال القرن السادس الميلادى عن طريق سمرقند، ويقال إن العرب احتكروا صناعة الورق لقرون عديدة، ثم نقلها الأوروبيون عنهم مع الحروب الصليبية، وقاموا بتطوير هذه الصناعة بسرعة وتنوع .

والرياضيات وعلوم الميكانيكا والفلك وغيره على يد مفكرين خالدين أمثال ابن الهيثم (آراؤه فى الضوء ١٠٥٠ م)، وجابر بن حيان (آراؤه فى الكيمياء)، وابن سينا (كتابه القانون فى الطب، والذى كان مرجعًا عالميًا لقرون كثيرة ٩٨٠ ـ ١٠٣٨ م)والخوارزمى (وضع أسس علم الجبر) وغيرهم كثير. وزاد وهج هذه الحضارة على مبادئ أخلاقية مما أدى إلى تحرك بعض رجال الدين المسيحى (البابا أوربان الثانى)(*)وتم تحريض الشعوب الأوروبية على الاحتكاك والتصادم فيما يسمى بالحروب الصليبية.

كان من نتيجة تلك الحروب والاتصال المباشر فى فلسطين وصقلية والأندلس، أن تعرف الأوروبيون على النتاج العلمى للحضارة العربية الإسلامية، واكتشفوا أن الحضارة العربية الإسلامية، و الشرقية على العموم، أكثر تقدمًا وتطورا من الحضارة الغربية. انتقل الكثير من المعارف من الشرق والجنوب إلى الغرب والشمال عن طريق تنقل الأفراد وعن طريق الترجمة من العربية إلى اللاتينية.

من المعروف أن الاستيعاب والتنسيق والإضافة للمعارف التى حصلها الإنسان فى زمن ما، يتم عن طريق أفراد قليلين من المتخصصين أو المهتمين الذين يتولون النقد والتقييم، ومنهم من يستحسن الفكرة ويشيد بالجدة فيها والفائدة منها ومنهم من يبرز الأخطاء والعيوب، فإن صمدت الفكرة يتم تسجيلها وتداولها بين الناس بدرجات متفاوتة تبعا لطبيعة المناخ العلمى فى مجتمع ما.

وعلى العموم، ليس من الميسور تقدير الإنجاز العلمى والاعتراف بحكمة العلماء وتقديرهم من سائر المحيطين، وخاصة من أهلهم فى حياتهم، هذا بالإضافة إلى أن التسجيل والنقل للمعارف العلمية من جيل سابق إلى جيل لاحق، أومن بيئة ثقافية معينة إلى بيئة أخرى قد يتم أحيانًا عن طريق أفراد ليست لهم المعرفة والدراية بحقيقة ما ينقلون فينقلونه خطأ أومحرفًا، وهذا حدث كثيراً فى الترجمات من العربية إلى

(*) قام هذا الرجل ذو أعلى مكانة دينية بين مسيحيى أوروبا قاطبة بإلقاء خطاب نارى مفعم بالحرارة والحماس البالغ فى اجتماع كنسى كبير احتشد له آلاف الأوروبيين سنة ١٠٩٥م، يدعوهم إلى أن يهبوا لتخليص كنائسهم فى فلسطين من أيدى المسلمين الذين يحتلون أرضهم المقدسة، بل إنه طلب إليهم أن يقيموا هناك لأن أرضها أرحب وأغنى من أوروبا (فى ذلك الوقت)، وبعد شهور قليلة من هذا الخطاب بدأت الحروب الصليبية وشارك فيها معظم الشعوب الأوروبية، واستمرت لأكثر من مائتى عام.

اللاتينية، لذلك يُعتقد أن التقدم العلمى المرتكز على النقل فقط يكون بطيئًا وتكون المعارف العلمية المتبادلة ضحلة الاستيعاب غالبًا.

بنهاية القرن الثالث عشر الميلادى وما بعده، زادت كمية المعارف المنقولة من العربية إلى اللاتينية، فنبهت العقول وأثارت الفضول الفكرى والحماس للمعرفة، وبدأ فى أوروبا مايسمى بعصر النهضة وانتقلت المناهج العلمية إلى مرحلة أخرى.

المرحلة الثانية

فى الفترة من القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى، حدثت طفرة هائلة فى الفكر الإنسانى وفى المعلومات عن الطبيعة، وخاصة فى أوروبا نتيجة لعدة عوامل منها:

(أ) تعظيم حواس الإنسان؛ تلك الحواس التى عن طريقها يدرك الإنسان ما يحيط به، على سبيل المثال لنأخذ حاسة البصر - يستطيع الإنسان الناضج الصحيح البدن أن يرى الأشياء ذات الحجم المعين بوضوح كاف حتى مسافة ستة أمتار مثلاً، وهذه هى قوة الإبصار الطبيعية للإنسان، إذن إذا استطاع أن يرى تلك الأشياء بنفس الوضوح وهى على بعد ستمائة متر مثلاً فذلك تعظيم لحاسة الإبصار، وبالتالى زيادة وتعظيم ما يستقبله العقل عن طريقها، وهذا ما حدث فعلاً فى أوروبا فاخترعوا «التليسكوب» لكى يرى الإنسان الأجسام البعيدة بوضوح أكثر ويجمع عنها معلومات أوفر، واخترعوا «الميكروسكوب» لكى يرى الإنسان الأشياء المتناهية الصغر وتفصيلاتها بوضوح، وماحدث لحاسة البصر حدث لباقى الحواس، إذن حدثت نقلة كبرى فى وسائل جمع ونقل المعلومات إلى العقل أدت إلى كثرتها الهائلة وتنوع تفاصيلها.

(ب) تبين الإنسان أنه لكى يقيم البرهان على صدق معرفته، فعليه أن يجرد تلك المعلومات من تأثير ذاته وميوله الخاصة، وأن يلتزم بالموضوعية المطلقة، ومع التنوع والكثرة فى المعلومات، وُجد فى الرموز المجردة (الرمز هنا يقابل المعلومة) والمنطق الرياضى (والذى وضع بذوره فيثاغورس اليونانى والخوارزمى العربى)

أنسب وأنقى أساليب الرصد و التحليل الموضوعية تمكَّن المنطق الرياضى المشتغل بالعلم من بناء مفاهيم مطردة التعقيد من معلومات أولية بسيطة، ثم استخدم تلك المفاهيم فى عملية التفكير فى مستويات أعمق يستحيل بلوغها دون ذلك، ومن هنا استطاع العقل الإنسانى أن يكون مصدراً للمعارف نتيجة لنشاطه الخاص من صياغة الفروض وبناء النظريات دون الحاجة إلى معلومات حسية .

(ج) حدث صراع مرير مع رجال السلطة الدينية المسيحية المدافعين عن امتيازاتهم؛ واجتهد مفكرو النهضة الأوروبية فى ترسيخ قيمة التفكير العقلى المنطقى الحر، وخاصة فيما يتصل بالمحسوس والعلوم الطبيعية، وكان تأثير أعمال علماء مفكرين أمثال فرنسيس بيكون (عن فلسفة العلم وقيمة العلم للتقدم الإنسانى والمنهج التجريبى ١٥٦١ - ١٦٢٦ م)، ورينيه ديكارت (عن المنهجية لحسن توجيه العقل للحصول على الحقيقة والتطبيقات فى مجالات الهندسة التحليلية، والبصريات والفلك، ١٥٩٦-١٦٥٠ م)، وجون لوك (عن الفهم الإنسانى وضوابط عمل العقل وحدود المعرفة ١٦٣٢ - ١٧٠٤ م) وإسحاق نيوتن (عن قيمة التجريب وحركة الأجسام وحسابات التفاضل والتكامل ١٦٤٢ - ١٧٢٧ م)، وهؤلاء وغيرهم كثيرون كان تأثيرهم قويًا فى تطوير المعارف العلمية عن الطبيعة .

إن هذا لايعنى أن التقدم العلمى وما يتميز به من انطلاقة فى الفكر ونقد الموروث والمعتاد ضد التدين، أو يجعل العقائد الدينية غير ذات ضرورة، أو شيئًا لايمكن الدفاع عنه أو تأييده، أو أن التقدم العلمى مرهون بأفول الدين والقيم الدينية، بل إن العلم ضد احتكار رجال الدين للحقيقة وخاصة فيما يتصل بالعلوم الطبيعية .

(د) تم اختراع الطباعة(*) وكان لتوثيق المعارف العلمية وحفظها وسهولة نشرها نتيجتان رئيسيتان؛ أولهما تراكم كميات هائلة من الأفكار التى ولدت أفكاراً أكثر عمقًا وانضباطًا، وثانيهما نشر المعارف العلمية بين أعداد أكبر من الناس وخلق

(*) قام الألمانى يوهان جوتنبرج (١٤٠٠ - ١٤٦٨م) بصب الحروف من معدن صلب، تلك الحروف التى توضع إلى جوار بعضها البعض، ثم يوضع فوقها الحبر والورق بنظام ودقة ويتم الضغط عليه فيتم الطبع. وهناك رأى آخر أن الكوريين والصينين هم أول من اخترع ماكينة الطباعة .

مناخ فكرى يعطى للمعرفة العلمية قيمة عالية ومركزاً مهمًا. وبعد اختراع الطباعة تقدمت العلوم والحضارة الأوروبية بسرعة هائلة لم تعرفها الإنسانية من قبل.

(هـ) ظهرت روح المغامرة ونمو الفضول المعرفى عن طريق اقتحام البحار والمحيطات وبدأ ما يسمى بعصر الاكتشافات الجغرافية فى أوروبا مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى، فأولا قام العديد من سكان جنوب أوروبا من البرتغاليين والإسبان والإيطاليين بالإبحار غربًا نحو المجهول والدوران حول إفريقيا لاكتشاف شعوب وأراضى وطرق وثروات جديدة، ثم تبعهم أهل الشمال من إنجليز وهولنديين وغيرهم فجابوا البحار الجنوبية • كل ذلك دفع إلى الاعتقاد والثقة بأن هناك شيئًا ما وراء المجهول، شيئًا مفيداً ومثيراً يحتم البحث عنه واكتشافه والمثابرة فى ذلك.

كل هذه العوامل أدت إلى مرحلة أكثر نضجًا للمعارف العلمية، وهى المرحلة التى أمكن فيها للإنسان أن يعبر عن معرفته فى صورة قانون أو نموذج رياضى يمكن اختباره بالتجربة، ومثال ذلك قوانين الحركة لنيوتن.

المرحلة الثالثة

بدأت هذه المرحلة من بداية القرن التاسع عشر عندما أدرك الإنسان أن هناك الكثير من الأحداث والظواهر الطبيعية تتأثر بعوامل قد نجهلها، وأخرى لا نستطيع التحكم فيها أو توقعها، لذلك لجأ العقل البشرى إلى تحديد درجة احتمال صدق معرفته ومدى مطابقتها للواقع والحقيقة، وأصبحت قوانين الاحتمال هى الأكثر استخدامًا لإقامة الدليل على صدق المعرفة، كما تم التركيز والنظر إلى الموجودات ككيانات نشطة ومتحركة ومتغيرة وليست ثابتة، وأهمية الكشف والمتابعة لهذه التغيرات وطبيعتها مهما طال أو قصر زمن الحركة حتى يستطيع الإنسان فهم ما جرى فى الماضى وما يجرى فى الحاضر، ويساعد على حسن استنباط وتوقع ما سيجرى فى المستقبل. وفى هذه المرحلة تم اكتشاف واستخدام عدة حقائق علمية، أهمها أن الطاقة أنواع، منها الميكانيكى الحركى والفيزيقى من حرارة وكهرباء وصوت، ومنها

الكيميائى، وأنه من الممكن تحويل الطاقة من نوع إلى آخر، مثلاً يمكن تحويل الطاقة الفيزيقية إلى ميكانيكية والعكس. وتم استخدام تلك المعارف فى اختراع العديد من الآلات والماكينات التى سهلت سبل الحياة للإنسان، وساعدته للاستمتاع بحياته أكثر من ذى قبل (الاحتراق الداخلى وصناعة السيارة مثلاً). وأصبحت الآلة أوالجهازأو الماكينة دعامة أساسية لتعظيم الحواس، وجمع البيانات وتحليلها بالسرعة والدقة الكافية، مع الاقتصاد فى الطاقة التى يبذلها الإنسان لتحقيق هدف محدد، وهذا دفع العلم والبحث العلمى إلى الأمام بقوة.

المرحلة الرابعة

بدأت هذه المرحلة مع بداية القرن العشرين عندما تأكدت أهمية الزمن كبعد رابع للموجودات، وقدم العالم الأمريكى الألمانى أينشتين نظريات النسبية العامة والخاصة.

وبناء عليها، تم وضع أسس وتفسيرات لنظرية الكم ومكونات عالم ما دون الذرة ونتج عن ذلك تفتيت الذرة واستخراج ما بها من طاقة هائلة، كما تم تحديد أوضح للعلاقة بين المادة والطاقة، واستطاع الإنسان متابعة التفاعلات الكيميائية فائقة السرعة وتسجيلها، وظهر مايسمى بالثورة الإليكترونية ومنجزاتها. وزادت استخدامات نظرية الاحتمالات والرياضيات عامة فى علوم الحياة، بل زاد استخدام المنجزات فى مجالات الفيزياء والكيمياء فى فهم أعمق وأشمل للظواهر البيولوچية وتطبيقاتها فى الصحة والمرض، وبالتحديد وسائل التشخيص وسبل العلاج. وقد انتهى القرن العشرون بغزو الفضاء الخارجى لكوكب الأرض، وافتراض تركيب للچينوم البشرى من سلسلة من المركبات الكيميائية، بما قد يؤدى إليه ذلك من تغيير فى فهم الإنسان للموجودات على كوكب الأرض وخارجه، وطريقة التعامل معها.

• وظائف العلم

العلم نشاط إنسانى ثقافى خلاق له وظائف متعددة منها:

(أ) الوظيفة النفسية للعلم

تدفع المعرفة الإنسان نحو التحرر من الخوف وزيادة الثقة بالنفس على أسس متينة، دون مجابهة مفاجآت أو صدمات أو عقبات تكشف عدم المعرفة بطبيعة ما يقوم به الفرد وعدم التقدير الصحيح لعواقبه. والمعرفة العلمية، على الخصوص، تتطلب المجاهدة الفكرية والمثابرة والتصميم للوصول إلى الهدف، مع تنظيم وترتيب المعلومات وخطوات التعامل معها، مع الحرص وعدم الاندفاع فى اتخاذ خطوات أو الوصول إلى قرارات أو توصيات بدون دلائل قوية وبراهين مقنعة.

وعلى ذلك فممارسة البحث العلمى والتعلم بصورة عامة، ينمى وينشط ملكات نفسية عند الشخص، ويؤكد مجموعة من القيم الإيجابية أهمها الصدق والتحرر الفكرى والمثابرة والدقة.

(ب) الوظيفة الاجتماعية للعلم

تؤثر المعرفة العلمية تأثيراً فعالاً فى سلوك الفرد داخل المجتمع وتنعكس مباشرة على هيكل العلاقات داخله. وتنعكس أيضًا المعرفة العلمية على المواصفات البيولوجية لأفراد المجتمع، وخاصة فى فترات العمر الحساسة كالطفولة والشيخوخة، حيث يعتمد الفرد بيولوجيًا وصحيًا بصورة أكثر تأثيراً على المحيطين به ودرجة وعيهم وإدراكهم للدور الذى يجب عليهم القيام به وأهميته.

العلم يدعو إلى النظام والتفكير العلمى فى كل مناحى الحياة، فعلى الفرد أن يحدد بوضوح الهدف من حركته أيًا كانت، ويختار الأسلوب والطريقة التى يحقق بها هذه الأهداف والوسائل التى بواسطتها يقيم النتائج؛ أى إن العلم يؤثر تأثيراً فاعلاً فى بناء المجتمع من جميع جوانبه سواء من ناحية المأكل، والملبس، والمسكن، والانتقالات، أو بناء المؤسسات التعليمية والصحية والفنية والترفيهية وإدارتها وأسلوب عملها... وهكذا.

(ج) الوظائف الاقتصادية للعلم

تبين الإنسان فى القرون الأخيرة أن زيادة معرفته عن الظواهر الطبيعية، وصفاتها الصادقة يمكن أن تُستخدم فى تسهيل سبل الحياة واقتصاد الطاقة المبذولة،

وسرعة الإنجاز وتحقيق الاكتفاء البيولوجى والنفسى بصفة عامة. بل إن المعرفة تساعد على المزيد من المعرفة بزيادة وتطوير وسائل البحث وتقديم أسئلة أكثر وأعمق.

لقد بدأت الثورة الصناعية فى أوروبا خلال القرون القليلة الماضية، وظهر ما يسمى بالتكنولوچيا، وذلك لتطويع المعارف العلمية لخدمة الإنسان، فيأكل طعامًا أكثر وأحسن، ويحمى نفسه من الطبيعة وغوائلها ومن أقرانه من البشر وأطماعهم بما يصنعه من أدوات وآلات وأجهزة، كما تطورت فنونه وآدابه. وكان من طبيعة الحال أن يرتبط تطور العلوم الإنسانية بتطور العلوم الطبيعية، وذلك بهدف حسن إدارة المشروعات والأعمال، وتوزيع العمل وضبط أسس الثواب والعقاب وتطوير الخدمات الاجتماعية، وعلى ذلك زاد أخيراً القول بأن العلم يجب أن يقدم خدمات فعّالة لمؤسسات الإنتاج والخدمات فى المجتمع حتى يزيد الدخل القومى ويسهل الاستمتاع بالحياة. تزيد نبرة هذه الدعوة علواً فى المجتمعات الفقيرة اقتصاديًا (أو التى تظن أنها فقيرة)، ويطالبون بأن النشاط العلمى يجب أن يؤدى إلى زيادة الدخل وبصورة مباشرة. فى خضم هذه الرغبة المحمومة فى الثراء مثل الآخرين، ينسى الكثيرون فى الدول الفقيرة أو يتناسون أن هؤلاء الآخرين يحصلون أولاً على المعارف العلمية عن طريق طويل من المجاهدة والتضحية، وينعمون بتأثيراتها النفسية والاجتماعية أولاً ثم بعد ذلك يحاولون تطوير حياتهم وزيادة ثرائهم المادى، وهنا أتساءل كيف يُطلب أو يُنتظر من العلماء فى المجتمعات الفقيرة أن تزيد الثروة عن طريق العلم مباشرة دون تهيئة المناخ العلمى والقاعدة الصناعية أو التمويل المناسب فى تلك المجتمعات!؟!

• البحث العلمى

منذ عرف الإنسان كيف يصنع من الحجر أدوات لصيد طعامه، أخذت معارفه تتزايد وتتراكم عن طريق النقل من جيل إلى جيل. كان هناك قليل من البشر أخذوا يفكرون فيما يجرى حولهم أكثر من الغالبية العظمى المشغولة بتلبية احتياجاتها المعيشية، وظهر فى المجتمعات الإنسانية العّراف والساحر والمنجم والحكيم والعالم والمفكر، هؤلاء هم المهمومون بتجميع المعارف واستيعابها وربطها واستخدامها عن طريق حواسهم وعقولهم وحركتهم. ما يهمنا من هؤلاء هو الحكماء والعلماء الذين

التزموا بتطوير المعرفة العلمية، ومناهج بحث محددة كما سبق شرحه. فى البداية، كان النشاط العلمى فرديًا لأشخاص ذوى ملكات واهتمامات خاصة، ويقومون هم أنفسهم بتمويل هذا النشاط من ممتلكاتهم الخاصة أحيانًا كهواية وأحيانًا أخرى كهواية واحتراف.

عندما أمكن تسجيل المعارف العلمية بوسائل سهلة وتم استخدام الورق ثم الطباعة، زادت كمية المعارف، وقامت المجتمعات البشرية بإنشاء مؤسسات لنقل هذه المعارف لأكبر عدد من أفرادها، تلك المؤسسات التعليمية التى جمعت تحت مظلتها المفكرين والعلماء بجانب المعلمين المحترفين.

نتيجة للتطور السريع فى فروع المعرفة العلمية وظهور كثير من التخصصات التى تخرج عن نطاق العملية التعليمية لعامة البشر؛ أى مازالت فى دور الإعداد والمناقشة بين العلماء وناقديهم، وكذلك لزيادة عدد الطلاب فى الجامعات، والذين يحتاجون لوقت أكثر من أعضاء هيئة التدريس مما يعوق نشاطهم البحثى، كل ذلك دفع كثيراً من الدول إلى الأخذ بنظام الأستاذ المتفرغ للبحث العلمى وأنشأت كثير من البلدان مؤسسات متفرغة للبحث العلمى.

واليوم يُبْنَى البحث العلمى كنشاط قومى منظم فى المؤسسات المتخصصة سواء المتفرغة أو غير المتفرغة، على عناصر رئيسية يمكن تلخيصها فيما يلى:

١ـ **الأفراد والكوادر:** وهم البشر العاملون فى مجال البحث العلمى، وينقسمون إلى باحثين مؤهلين وكوادر مساعدة من فنين ومساعدين، وعلى رأسهم جهاز إدارى رشيد. وإدارة المؤسسات العلمية لها خصوصيتها؛ إذ يتطلب الأمر فيمن يدير العمل العلمى ويوجه العاملين ويضع السياسات والخطط ويتابع تنفيذها أن تتوافر فيه شروط خاصة؛ أهمها المعرفة والتميز فيما يعرف وأن يكون واسع الأفق عميق التفكير ويجيد استخدام الطاقات الكامنة فى مؤسسته، وخاصة الأفراد، ومنهم زملاؤه بدون حساسية أو غيرة. والإدارة من أخطر عناصر المؤسسة؛ إذ هى صاحبة سلطة، فبحكم اللوائح والقوانين السائدة، يأمر صاحب السلطة فيطيع الآخرون، ويجب أن يكون مسئولا مسئولية كاملة وعنده الإجابة لكل ما يُسأل فيه من أعمال ونشاط مؤسسته، وتقع عليه شخصيًا تبعاته. وكذلك كل فرد من العاملين فى

المؤسسة له شروطه وأهمها جميعًا أن يكون ذا فضول علمى وحب للمعرفة، وتوضع لذلك النظم لاختيارهم.

٢ ـ **الخطط والسياسات**: أى تحديد الأهداف العامة والخاصة للنشاط العلمى واستيعاب هذه الأهداف بوضوح، ثم تحديد طرق تحقيق هذه الأهداف فى صورة خطط تفصيلية طويلة وقصيرة الأجل، مع ربط التخطيط العلمى بالتخطيط فى سائر مجالات العمل القومى. ولكى يتم ذلك بصورة إيجابية مؤثرة فى تنمية المجتمع يحتاج الأمر كوادر متخصصة ذات حس وطنى واعٍ، وذات خبرات متميزة فى مجالات التنظيم والإدارة بجانب تميزها فى تخصصاتها العلمية الدقيقة.

٣ ـ **الإمكانات والوسائل**: التى بها يتم تحقيق خطة العمل والوصول إلى الأهداف المنشودة، وتضم المبانى والأجهزة والأدوات والمواد اللازمة بجانب مصادر المعلومات من مكتبات واتصالات.. وغير ذلك

وحتى يتم توفير الإمكانات بمستوى مناسب يسمح بالعمل المفيد، يتطلب الأمر تمويلاً كافيًا، والتمويل فى حالة البحث العلمى حاليًا يتم إما من داخل الدولة وإمَّا خارجها، ومصادر التمويل الداخلى هى الحكومة أو مؤسسات غير حكومية أو أفراد. وفى كل الأحوال يدفع الممول من ماله لتحقيق رسالة فى صورة أهداف محددة.

فى حالة الحكومة، يمكن تلخيص أهدافها لتمويل البحث العلمى فى الآتى:

(أ) التنمية الثقافية والفكرية للمجتمع بصفة عامة وإثراء الوعاء المعرفى المتخصص.

(ب) إعداد كوادر علمية ذات مستوى عال فى كل التخصصات العلمية المتاحة، لتكون قادرة على التعرض للمشكلات النوعية التى قد تواجه المجتمع بكفاءة.

(ج) تعظيم إمكانات حل المشكلات الفنية أمام المؤسسات الإنتاجية والخدمية فى الوطن بواسطة أبنائها.

(د) المساعدة فى إعداد الأفراد القادرين على استيعاب وابتكار كل جديد فى مناحى الحياة المختلفة. وعلينا أن نتذكر أن تمويل الحكومات للبحث العلمى حديث لا يتعدى قرنًا من الزمان تقريبًا على مستوى العالم، باستثناء قلة من

الدول ، وذلك نظراً لطبيعة ترتيب الأولويات بواسطة السياسيين والحكام الذين يرتبون الطعام قبل المعرفة والحماية بالسلاح قبل الحماية بالعلم .

أما المؤسسات غير الحكومية ، فهى تقوم بتمويل البحوث العلمية بقدر الاستفادة من عائدها ، وعلى ذلك تقوم الشركات والمصانع فى الدول الصناعية المتقدمة بالنصيب الأكبر فى تمويل البحث العلمى ، وذلك لتطوير منتجاتها وزيادة دخلها بالدرجة الأولى .

فى المجتمعات النامية ، هذا المصدر للتمويل محدود للغاية حيث إن معظم وسائل الإنتاج والخدمات الحديثة مستوردة من دول أخرى ، وعادة تطوير هذه الوسائل وصيانتها حكر على صُناعها أصحاب الفكر والتقنية من ورائها .

أما الجهات الخارجية كممول للبحث العلمى كنوع من التعاون بين الدول والحكومات ، فإن تلك الجهات تقوم بدفع المال لتحقيق أهدافها أيضًا ؛ تلك الأهداف التى تصاغ عادة فى عبارات عامة مرنة تسمح بالتغيير فى الأولويات والاتجاهات بما يخدم فى النهاية المصلحة العليا لتلك الدول مقدمة التمويل ، وعندما تتوافق تلك الأهداف مع رغبات طالبى التمويل فإن باب التمويل يفتح ولكن لا يتم الإ بشروط الجهة الممولة وحسب الأسلوب التنظيمى الحاكم لعملها ، هذا التمويل يكون عادة فى صورة منح مالية تدفع لتمويل بحث علمى ذى موضوع محدد ، أو عقد بين طرفين لتمويل أعمال يحددها الطرف الممول أو مساعدات مالية للتدريب ، ورفع كفاءة الأفراد العلميين فى التخصصات التى يحددها الممول .

٤ ـ **المناخ العلمى :** الحياة الفكرية للمجتمعات الإنسانية تسودها أحيانًا النزعة العقلية الانتقادية والفضول العلمى والجرأة الفلسفية ، الصراحة وعدم الخوف من مواجهة الحقيقة ، وتلك ما يسمى بالعصور الذهبية وفترات الازدهار الحضارية ، والتى تتصف بمناخ موات للتقدم المعرفى والعلمى ، وأحيانًا أخرى يسود القلق بين أفراد الأمة ، ويسيطر الوهم ويُمارس اللامعقول ، ويلجأ الناس لحل مشاكلهم بطرق غير علمية كالتطلع للأبراج وفتح المندل والكوتشينة وقراءة الفنجان . . . وغير ذلك ، وعندئذ يصبح ما يكفل البقاء هو التضامن بالعصبية (التعصب للنوع أو العرق أوالنسب أو الدين أو المهنة . . إلخ) ، ويسود الاستخفاف بالفكر العلمى المنظم

وتتولد مقاومة عنيفة ضد تدخل العقل. يتطلب المناخ العلمى المناسب الجهود المخلصة لتوضيح جوانب اختلاف التفكير العلمى عن التفكير العشوائى أو اللاعلمى، فالتفكير العلمى ليس ترفًا تتزين به المجتمعات وتتباهى به الدول والحكومات، وإنما هو منهج عمل وأسلوب حياة يقوده العقل ويضبطه المنطق، فإذا ساد واستعانت به الأغلبية أتاح ذلك مناخًا يؤدى إلى تشجيع وتجويد الإنتاج العلمى ويصبح مفهومًا ومقبولاً وذا مردود مشهود للعيان.

هناك آليات محددة لتهيئة المناخ العلمى المناسب مثل انتشار التعليم ومكافحة الأمية والجهل. والتعليم ليس فقط هو ديناميكية نقل المعلومات والمعارف المتراكمة من أجيال سابقة إلى جيل لاحق، ولكن أيضًا كما يقول فلاسفة التعليم، وسيلة لإنضاج الشخصية الخاصة بالإنسان ومساعدته فى التعرف على إمكاناته العقلية والوجدانية والبدنية، ثم استخدام تلك الإمكانات والمواهب وإبرازها لتطوير حياته بذاته وحياة أمته معًا.

إن الرغبة فى التعلم والتفوق إذا وجدت كدافع نفسى رئيسى يحرك الإنسان فى تعامله مع المجتمع والبيئة من حوله، تؤدى إلى الوعى المستنير بالإمكانات الفاضلة لدى الفرد واستخدام هذه الإمكانات فى النافع دون الضار، وعلى ذلك فالعلم والتعليم هما ضرورة حياة. كما أن المزيد من الجهد فى تبسيط العلوم، ونشر ما يسمى بالثقافة العلمية عن طريق تشجيع التأليف والطباعة والتوزيع للمعارف العلمية بأسلوب سهل مفهوم للمثقف العام من الآليات المهمة لخلق مناخ مناسب للعمل والتجويد العلمى.

٥ ـ القيم الأخلاقية: يحكم كل هذه العناصر السابقة القيم الأخلاقية الإيجابية التى هى عصمة أمرنا ومرشدنا للسلوك القويم حتى يصل الباحث العلمى إلى الحقيقة التى يبحث عنها. والأخلاق الإيجابية لازمة لكل البشر، تؤصل الضمير فى النفس الإنسانية وتحسن السلوك وتوجه عمل الإنسان إلى ما ينفع الناس، بل إلى الكمال فى الأداء حتى يكون الإنسان خليقًا بإنسانيته.

ومن أهم القيم الأخلاقية للباحث العلمى الأمانة فى القول والعمل. وأحد جوانب الأمانة العلمية هو ما يتصل بالمعلومة وكيفية الحصول عليها. فمن الأمانة العلمية أن تنسب الفكرة لصاحبها، ويقف الإنسان عند حدود مايعلم بيقين وألاّ يفتى بغير علم، وأن يتقبل المشتغل بالعلم الحقيقة التى تم إثباتها بالدلائل والبراهين حتى وإن خالفت «مسلماته

المسبقة»، وعلى الباحث العلمى أن يسعى لمعرفة الحقائق الكامنة فى خلق الله ملتزمًا بالآداب والقواعد المعمول بها، وليس صناعة ما يروق له من «حقائق» لتبرير سياسة معينة أو للتسلق الاجتماعى أو للحصول على مكاسب أو مناصب لايستحقها.

الصدق والأمانة صفتان ضروريتان للإنسان أيًا كان عمله، ولكن فى حالة الباحث العلمى فهما من القيم الحيوية؛ لأن الحيود عنهما وعدم الالتزام بهما بكل صراحة كتزوير البيانات أو اغتصاب رأى فرد ونسبه لآخر، فهى جرائم مركبة ومستمرة التأثير التخريبى، لأن فيها تضليلاً وغشًا للقارئ جيلاً بعد جيل. والذى قد يبنى عليهما بحوثًا جديدة ونتائج جديدة.

وهناك جانب آخر من الأمانة العلمية، وهو المتصل بتطبيق نتائج البحوث العلمية وكيف تكون لخير الناس جميعًا. وقد أنشأت العديد من الدول والمؤسسات مجالس خاصة للدراسة والتحليل لمجموعة القيم الأخلاقية، وآليات الالتزام بها عند ممارسة البحث العلمى وتطبيق نتائجه.

إن العلم كالإيمان، معًا من فيض الله وإشراق نوره على النفس البشرية، ينطويان معًا على غاية واحدة هى الحق والخير للإنسان.

* * *

الفصل السادس

التكنولوچيا أو علم التقنية

تبنى الطيور أعشاشها، وهناك من الحيوان من يحفر الجحور، ويهيئ المراقد ويجمع الثمار، ويخزن الطعام، كما حاول الإنسان من قديم الزمان استخدام المواد المحيطة ببيئته من أحجار وأخشاب، وعظام كأدوات تساعده لتوفير احتياجاته من طعام وكساء ومسكن.

إن الخطوات والعمليات التى يستخدمها الكائن الحى فى توفير احتياجاته، والكيفية التى بها يتم ترتيب وتنفيذ هذه الخطوات، هى بالمفهوم المطلق تقنية (Technique).

لقد تميز الإنسان بمهارات عقلية وعضلية خاصة. إن انتصاب قامة الإنسان وتحرير يديه من مهمة الارتكاز والسير، قد أطلقت لهاتين اليدين إمكانية صنع الآلة، ومع تطور حاسة البصر أمكن تحسين ما تصنعه اليدان، لكن الأهم هو ارتقاء المخ البشرى وتطور المقدرة على التعلم والتخيل والتذكر، فقد أمكن اختزان المعارف واستدعاؤها عند الحاجة، كما أمكن رسم الخطة تخيلا بالعقل قبل التنفيذ فى الواقع لأعمال محددة. استطاع الإنسان أن يطور الرمح الذى يصنعه من أفرع الأشجار ويلقيه باليد ليصبح صاروخًا عابرًا للقارات، وقد تطلب ذلك تراكم كميات هائلة من المعارف فى العديد من العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية على مدى القرون، وهذا يبين بوضوح مدى ارتباط التقدم التقنى بالتقدم العلمى.

حتى تكون هناك تقنية لابد أن يسبقها رغبة فى احتياجات ما، وتحدد هذه الرغبة الدوافع والميول والطموحات وأفق المعرفة، كما يجب أن تكون هناك أيضا مقدرة على تحقيق تلك الرغبات، وتتطلب هذه المقدرة المعرفة والمهارة والخبرة•

إن مجموع المعارف المنهجية والمهارات التى تنظم وتدخل بصورة مباشرة فى كيفية توفير الاحتياجات، وتحقيق الرغبات بأكبر كفاءة ممكنة، هى علم التقنية أو التكنولوچيا (Techn-ology).

التكنولوچيا هى استثمار للمعرفة فى العقول أو المسجلة فى كلمات وخطوط وتحويلها إلى منتج أو خدمة يحسها ويستخدمها الناس فى حياتهم اليومية. لكن لا بد من التميز بوضوح بين امتلاك المعارف كخطوة أولية، وعمل شىء مفيد لهذه المعارف. هناك معارف ذات أهمية قاطعة فى تطور التقنية، ومنها على سبيل المثال اكتشاف الفائدة من استخدام النار، أو إمكانية استخدام البذور وزراعة الأرض، أو صناعة الأوانى أوالعجلة أواكتشاف الكتابة والطباعة . . . كل هذه المعارف والمهارات تراكمت وانتشرت بين المجموعات البشرية، وقد أضافت كل مجموعة من البشر إليها من عناصر ثقافتها الخاصة وانتهت إلى ما وصلنا إليه اليوم.

وعلى العموم ليست كل الأفكار الجيدة صالحة لأن تؤدى إلى منتج ذى وظيفة مطلوبة، بل إن هناك خطوات لازمة للتحقق من مدى النفع للإنسان العادى من تحويل المعارف والنتائج العلمية إلى منتجات تقنية محسوسة، أو تطبيقها لتقديم خدمات مفيدة، ومنها على سبيل المثال دراسات الجدوى الاقتصادية ومدى النفع المعنوى ودرجة التوافق مع القيم الأخلاقية فى المجتمع.

نظرًا لنشأة وتطور التكنولوچيا المعاصرة فى المجتمعات الأوروبية؛ تلك المجتمعات القائمة على فكرة تجميع واستثمار وتنمية رأس المال عن طريق الجهد البشرى وتفاعله مع المواد الخام الموجودة فى الطبيعة، فإن هناك ارتباطًا قويًا بين التكنولوچيا والاقتصاد، وانتشرهذا الارتباط بين كل المجتمعات البشرية على هذا الكوكب. فإذا كان الاقتصاد هو علم توفير الحد الأقصى من الاحتياجات والمنتجات مع بذل الحد الأدنى من الجهد واستخدام الأقل من المال والمواد، فإننا نجد هذا الارتباط واضحًا؛ لأن التكنولوچيا ما

هى إلا الأساليب (فى التراث العربى) لتحقيق الاحتياجات، وهى مكون أساسى فى اقتصاد أى مجتمع بجانب المكونات الأخرى مثل طرق توزيع المتجات، وما يتطلبها من إدارة وتخزين ونقل حتى تصل إلى يد المستهلك، وكلما تنوعت المنتجات وازداد إنتاجها زاد تعقيد إدارة استخدامها؛ لذلك تتداخل فى المجتمعات الحديثة المعارف العلمية وطرق تحصيلها مع الوسائل والإمكانات الإنتاجية مع كفاءة وعدالة التوزيع على المستهلكين بما يتضمن ذلك من عوامل تكنولوچية واقتصادية بل وسياسية.

وسواء كان المنتج التكنولوچى صناعيًا أو زراعيًا أو خدميًا، فهو فى كل الأحوال يعتمد على ثلاثة عناصر أساسية هى:

١- الإنسان بعلمه وخبرته ومهارته وطاقته البدنية.

٢- الثروة الطبيعية من نبات وحيوان وأرض ومياه ومواد خام.. إلخ.

٣- المال المحرك للإنسان للبقاء واستغلال الثروة الطبيعية المحيطة به.

وعادة ما يكون المنتج عندما تدور العجلة الإنتاجية زائدًا عن حاجة السكان فى منطقة الإنتاج، وعلى ذلك يتطلب الأمر التجارة والإدارة، والتخزين والنقل، والتسويق والتوزيع.. إلخ. وإلا يقف الإنتاج ويصبح غير ذى ضرورة.

التكنولوچيا وتوزيع العمل

هناك عوامل بيولوچية وأخرى تخصصية لتوزيع العمل على الأفراد القائمين على أدائه، وحيث إن من يقوم بالعمل وإدارته حتى الآن هم البشر، ومنهم الذكور ومنهم الإناث، ومنهم الأطفال ومنهم الناضجون، ومنهم الشيوخ، فإن من طبيعة الأمور أن يقوم كل فرد بما هو مناسب لقوته البدنية ومعارفه وخبراته ومهاراته؛ وذلك حتى تكون نتيجة عمله على أحسن ما يمكن.

ومن الملاحظ على مر التاريخ الإنسانى أن الذكور هم الحائزون على معظم المراكز القيادية فى المجتمعات كمفكرين وقادة ومديرين، وأحيانا كثيرة يقال أن ذلك إما بسبب القوة البدنية، وإمًا التفوق الفكرى، وإمًا السيادة الاقتصادية، ولكن التطورات التى

حدثت فى العصور الحديثة تشير إلى أن الفارق الوحيد هو الفارق البيولوچى، وبالتحديد القيود التى يفرضها الحمل والرضاعة، ورعاية الأطفال على حرية الأنثى وحركتها وما يتبع ذلك من ميول وحوافز نفسية.

أما بالنسبة للعمر، فإن مرحلة الطفولة هى مرحلة اعتماد كلى للإنسان على أسرته من ناحية تدبير الاحتياجات الضرورية لنموه البدنى والفكرى، وعلى ذلك يحتاج الأمر أن تتاح له الفرصة للإعداد الجيد وعدم تحميله أية تبعات بدنية أو اقتصادية بما يؤهله للمشاركة الفاعلة لتقدم وتطوير مجتمعه عندما يصل إلى مرحلة النضوج. فى مرحلة الشيخوخة، عندما يبدأ ذبول الجسد وتضعف القوة البدنية، فهى المرحلة التى يكون فيها المخزون المعرفى فى قمته، وخاصة عند الجادين من المشتغلين بالعلوم المختلفة، ويحتاج الأمر لاستخدام هذه المعارف والخبرات فى إعداد الأجيال الجديدة من أطفال وفى تخطيط وتوجيه نشاط الناضجين منهم، وإلا سيكون هناك تبديد لثروات غالية، وتأجيل لنهوض وتقدم المجتمعات.

أما عن التخصص كأساس لتوزيع العمل، فهو إما أن يقوم الفرد أو مجموعة من الأفراد بمنتج كامل من البداية إلى النهاية، كصناعة الأوانى الفخارية مثلا، وإمّا أن المنتج الواحد والأكثر تعقيداً يتم توزيع خطوات إنتاجه على مراحل، ويقوم الفرد أومجموعة من الأفراد بإنجاز مرحلة واحدة فقط كمعظم المنتجات الحديثة. فإذا كان العمل هو نتاج فرد واحد من البداية إلى النهاية، فهذا يحتاج للتعلم والتدريب وصقل المهارة، أما إذا كان عمل مجموعة من الأفراد، فالأمر يحتاج بجانب المهارة الفردية، إلى التوافق والتكيف والتعاون والانضباط والدقة بين جميع المشاركين فى العمل مهما تباعدت أماكنهم.

إذا كان امتلاك الإنسان للغة هو ما أدى إلى صنع الثقافة، فإن التكنولوچيا هى الممارسة التى ساعدته للاستفادة من هذه الثقافة وجعلته أقوى وأنجح المخلوقات. مكنت التكنولوچيا الإنسان من السيادة على كل مكان تقريبًا على سطح كوكب الأرض، بل غاص تحت المياه كما طار فى السماء وغزا الفضاء.

التكنولوجيا ومصادر الطاقة

ترتبط التكنولوچيا بالآلة وعصر التصنيع وتطور مصادر الطاقة اللازمة لحركة الآلة. فمن المعروف أن طاقة الكائن الحى هى المحرك لأنشطته، وقد استخدم الإنسان طاقته البدنية مباشراً لإنجاز احتياجاته، ثم استخدم طاقة الحيوان بعد استئناسه لمساعدته فى إتمام مهامه، هذا بجانب كونه طعامًا له يمد بدن الإنسان بالطاقة اللازمة له، ثم بعد ذلك استخدم الطاقة الكامنة فى المادة غير الحية سواء كانت ميكانيكية أو حرارية أو كيميائية أو كهربية أو إليكترونية، كما أمكن تحويل الطاقة من نوع إلى آخر بما يسهل استخدامها ويحقق الهدف الاقتصادى والتقنى من هذا التحويل.

ولنأخذ على سبيل المثال علاقة الإنسان بالزمن ومحاولات تحديده وقياسه كميًا، ففى البداية كان تحديد الزمن يتم بواسطة الإحساس بالنور، أو الظلام وشدة الحرارة أو ضعفها، وكل ذلك مرتبط بحركة الأرض حول نفسها وحول الشمس، ثم رصد حركة القمر وشكله وحجمه، ثم متابعة الفصول لتحديد الفترات الزمنية الأطول، وكل ذلك ظواهر طبيعية يلاحظها ويحسها الإنسان، ومن ثم تسمية أوقات اليوم (فجر وظهر ومغرب. . .)، والسنة (شتاء وصيف وربيع وخريف)، وربط الممارسات الدينية بهذه الأوقات لتنظيمها وضبطها. وعندما اتجه الإنسان لقياس الوقت كميًا، قام بقياس ظل الأجسام؛ طول هذا الظل واتجاهه فى فترات النهار، ثم تساقط المياه ووزن كمية المياه، ثم قياس كمية الرمال الناعمة والمتسربة فى فترات معينة؛ أى أن هناك تفاعلاً بين الجهد البشرى والظواهر الطبيعية لقياس الزمن، واستمرت الممارسات وزادت وتراكمت المعارف إلى أن أمكن صنع آلة لقياس الزمن ذاتية الحركة، ومصدر الطاقة فيها استخدام الظواهر الطبيعية من ميكانيكا وكهرباء. . . وقد أوجدت آلة قياس الزمن ـ الساعة ـ قيم جديدة فى المجتمع، منها الانضباط والدقة وسرعة الإنجاز فى الحياة الشخصية للأفراد وأيضًا فى نشاط المجموعات مما كان له أثر قوى فى تطور الصناعة والتكنولوچيا.

ويعتبر مجال النقل والاتصالات من المجالات البارزة التى تأثرت بالتطور العلمى والتكنولوچى بصورة فاعلة فى حياة الإنسان، وذلك مرتبط ارتباطًا وثيقًا بتنوع مصادر الطاقة وإمكان التحكم فى استخدامها. فعندما كان الإنسان يريد الانتقال من مكان «أ» إلى مكان «ب» مثلاً، فإنه فى البداية كان يستخدم طاقته البدنية ويمشى المسافة أ ـ ب،

وبعد ذلك اقتصد فى طاقته وركب الحيوان مستخدمًا طاقة المركوب، ثم بدأ فى التفكير فى اقتصاد طاقة الحيوان لأداء عمل أكثر، فاخترع العجلة (wheel)، والعربة التى يجرها الحيوان، ثم الدراجة (bicycle) التى يستخدمها بأطرافه فيؤدى بنفس الجهد عملاً أكثر ويتحرك مسافة أطول، ثم استخدم الاحتراق الخارجى والبخار وطاقته الناتجة من تحويل السائل ذى الحجم الأقل إلى الغاز ذى الحجم الأكبر، وتحويل هذه الطاقة إلى طاقة ميكانيكية محركة للعجلة، ثم الاحتراق الداخلى واستخدام سوائل أخرى غير الماء كالبنزين، ثم تحقق الحلم القديم للإنسان بالطيران فى الفضاء مثل الطيور ولكن باستخدام المعارف والتقنيات المكتسبة.

دفع اكتشاف الكهرباء وتقديم نظريات الكم والنسبية الفكر الإنسانى نحو آفاق جديدة، وأمكن استنباط تقنيات حديثة لاستخدام الإليكترونيات كمكونات دقيقة للمادة وكذلك الموجات بأنواعها المختلفة فى عالم الاتصالات، وكمصدر للطاقة. تلك التقنيات التى حولت الكرة الأرضية إلى قرية كونية يمكن التواصل بين أطرافها فى لحظات.

من الملاحظ أن التكنولوچيا المعاصرة بدأت وتطورت بين المجتمعات الأوروبية مع تقدم المعارف العلمية، وخاصة فى مجالات العلوم الطبيعية الأساسية من فيزياء وكيمياء وبيولوچيا بجانب الرياضيات، وذلك مع بداية القرن السابع عشر وظهور ما يسمى بعصر الصناعة التى قفزت هناك خطوات واسعة خلال القرنين الماضيين، وأدت إلى القوة العسكرية الغالبة، والثروة الاقتصادية الفائقة، وقد ارتبط انتشار وتنوع الصناعات بتبلوّر مجموعة من القيم التى ساعدت على نموها، فقد تشكلت النظم الاجتماعية بما يتفق مع ذلك النشاط الإنسانى الجديد، وتطورت مجموعة من المعارف عن تقديس قواعد العمل وعن الحرية والإخاء والمساواة وسيادة القانون.. وغير ذلك.
وقد نشأ عن ذلك وضع عالمى يتسم بسيادة المجتمعات الأوروبية على الكرة الأرضية فى القرون الأخيرة، وسمحت هذه المجتمعات لنفسها باستغلال المميزات الجغرافية و ثروات الأرض بغض النظر عن أماكن وجودها وحقوق المجموعات البشرية التى نشأت وتعيش على هذه الأجزاء من الأرض، مما أدى فى نهاية الأمر إلى ظهور ما يسمى بازدواجية المعايير وتفضيل البعض لمصالحهم على مصالح الآخرين وتحقيق هذه المصالح ولو بالقوة والقهر.

وبجانب ذلك، فإن التقدم التكنولوچى حد من حركة الإنسان، وجعله مبالغاً فى استخدام الآلة، وذلك بطبيعة الحال كان له آثار سلبية على صحة الإنسان وسلامة بدنه، كما أن الكسب المادى الكبير دفع الصُناع لعمل الكثير من الآلات، واستطاع بوسائل الإعلام والإغراء خلق الرغبة وتأكيد الاحتياج إليها مما فيه تبديد الكثير من المال، وها نحن نشهد الآثار السلبية لتطور التكنولوچيا فى عالم الطب والدواء، فقد ظهر التنافس الشديد فى تقديم منتجات جديدة، وقد تكون غير ضرورية، ولكن بهدف استبدال الدواء الغالى بدواء أرخص ثمناً ـ ليس بالضرورة أكثر فاعلية ـ وزيادة أرباح الشركات المنتجة.

* * *

الفصل السابع

القيم والعادات والتقاليد

يحكم سلوك الأفراد والجماعات من البشربعض الأفكار والمفاهيم التى توجه وتقود وتشجع على قول ما أوفعل ما، وأيضًا تحذر وتمنع من أقوال وأفعال أخرى. أصبحت هذه الأفكار والمفاهيم لازمة مميزة لنوع الإنسان العاقل منذ بدأ يدرك وجوده ويعى الخلق من حوله. وعملية ضبط السلوك البشرى يحددها ما تعارف الناس عليه داخل المجموعات من العادات، أو الدين أو القانون، أو كل هذه المحددات مجتمعة حسب تجارب المجتمع وتطور خبراته. وفى كل الأحوال، يتطلب الأمر بناء ضمير ذاتى فى النفس الإنسانية - وحدة بناء المجتمع - يساعد فى التميز بين الخطأ والصواب، بين الخير والشر، بين الحلال والحرام، وبناء هذا الضمير وتربيته يحتاج لإطار من القيم بعضها إيجابى يساعد على البقاء والنماء، لذا يلزم السعى إليها والتمسك بها، والآخر سلبى يدفع إلى الفساد والضرر؛ ولذا يجب تجنبها والبعد عنها حتى يكون الفرد والمجتمع إنسانيًا آمنًا سويًا ترفرف عليه السعادة والرفاهية.

والقيم قد تكون معنوية كالصدق والأمانة والشرف... إلخ، ويطلق عليها أيضًا مصطلح الأخلاق، وهذا مجال واسع من العلوم والفلسفة التى تبحث فى القيم المعنوية والأخلاقية. كما يمثل المركز الاجتماعى للفرد سواء أكان مكتسبًا أم موروثًا (اللورد - الباشا - رجل الدين - الأمير - الحاكم - العالم - الفنان.. إلخ) أحد جوانب القيم داخل المجتمع، وقد تكون هذه القيم مادية كالممتلكات من أرض وعقارات وثروات

وأموال، وقد تكون مواصفات فيزيقية للفرد من قوة وصحة وجمال وبسطة فى البدن وكماله. كل هذه الجوانب تمثل معًا منظومة القيم فى مجتمع ما، وكما تتباين المجموعات فى فهمها العميق لكل قيمة ومدى سيادتها على حدة، تتباين أيضًا منظومة القيم بين المجتمعات حسب عناصرها وترتيب هذه العناصر حسب الأفضلية.

وهنا ممكن أن نتساءل هل هناك منظومة معيارية للقيم داخل النوع البشرى يمكن استخدامها للحكم على مدى تقدم، وفاعلية منظومة داخل مجتمع ما عن أخرى داخل مجتمع آخر ؟!

يقول المختصون: إن المنظومة القيمية فى أى مجتمع مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالتراث الثقافى لهذا المجتمع وعناصره المختلفة من دين ولغة ومعارف ومشاعر وأحاسيس، هذا التراث يحدد المفهوم لكل قيمة ويضفى عليها صفة الإيجابية المرغوبة أو السلبية المرهوبة، كما أن أبعاد الإدراك للقيمة المعنوية الواحدة تختلف فى مجتمع عن آخر، وعلى سبيل المثال لنأخذ قيمة الأمانة كقيمة إيجابية مرغوبة فى كل المجتمعات، بمعنى أداء ما يؤتمن عليه الفرد من ودائع وديون، فإنه فى الثقافة العربية الإسلامية يمتد مفهوم الأمانة ليشمل العدل وأداء الحقوق، كما تعنى التمييز بين الخير والشر والتكليف بعمل الخير، والامتناع عن الشر للفرد ولسائر البشر، وذلك عن طريق طاعة الخالق سبحانه وتعالى، وبذلك كانت الأمانة صفة خاصة بالإنسان تكريمًا له وتفضيلاً على كثير مماخلق، وذلك بنص الآية الكريمة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾

[الأحزاب: ٧٢].

وعلى ذلك تتضمن قيمة الأمانة فى الثقافة العربية الإسلامية كل مايؤتمن عليه الفرد من قول أو مال أو علم أوعمل، بل كل النعم التى تفيد الإنسان نفسه وغيره.

ولنأخذ أيضًا قيمة «الشرف» كقيمة إيجابية مرغوبة فى كل المجتمعات الإنسانية، ولكنها فى المجتمع العربى الإسلامى مثلاً يتركز الاهتمام على عذرية الأنثى، وشرعية العلاقات الجنسية كتوصيف رئيسى ذى مرتبة أولى لقيمة الشرف، وتأتى الممارسات الأخرى كالنصب والتضليل والكذب. كسلوك مخل بالشرف فى المرتبة الثانية،

بعكس المجتمعات الأوروبية المعاصرة مثلاً حيث ينعكس ترتيب الأولويات فى مفهوم الشرف.

هناك أيضًا تباين فى إدراك القيم الواحدة بين الطبقات المختلفة وفى العصور المختلفة داخل المجتمع الواحد، ولنأخذ على سبيل المثال قيمة «العمل» كوسيلة للوفاء باحتياجات الحياة، ففى المجتمعات الإقطاعية وفى عصور العبودية يكون قيمة سلبية لأن من يعمل هم الطبقات الدنيا، ومن لايعمل (بل يملك)هم الطبقات العليا، ولكن فى العصور الحديثة يعتبر العمل شرفًا، وخاصة العمل الصالح (العمل الجيد كلٌّ فيما يقوم به)مفتاح الإيمان الدينى نحو خير الإنسانية فى الدنيا والأخرة.

فى كثير من المجتمعات البدائية والحديثة تعتبر «القوة» قيمة إيجابية رفيعة يسعى لها الأفراد والمجتمعات، بمعنى أن القوة هى المقدرة على دفع الضرر ومنع العدوان وإرهاب العدو هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى هى المقدرة على التأثير فى الآخرين وإجبارهم على طاعة إرادتك. وتختلف وسائل الحصول على القوة بين الصحة والقوة البدنية والثروة وكثرة الممتلكات وعدد الأفراد، والعلم والتكنولوچيا، لكن القوة كقيمة إيجابية قد تكون مرتبطة بقيم إيجابية أخرى كالشجاعة والإيثار والكرم، وسنداً للحق والعدل، وقد تكون مرتبطة بقيم سلبية كالأنانية والتعصب للذات والتفرقة بين البشر والجنوح نحوالسيادة على الآخرين.

المنظومة القيمية فى مجتمع ما تجمع قيمًا مختلفة بترتيب أولويات ونسب متفردة، إلا نفس القيم ممكن أن ترتبط بترتيب ونسب أخرى فى منظومةأخرى لمجتمع آخر.

العادات والتقاليد

العادة هى عمل نوعى محدد يتم تكراره بواسطة الممارس الفرد على مدد طويلة لكفاية احتياجات دون وعى أو إدراك لبداياته أو نهاياته. وقد تشترك مجموعة من الناس فى هذا العمل وتكون ممارسته مميزة لهذا المجتمع أو أحد قطاعاته عن غيره، وقد تنتقل العادة بالتقليد من جيل إلى جيل، ويطلق على مثل هذه العادات التقاليد، مثل تقاليد الزواج أو الطب التقليدى وغير ذلك.

هناك احتياجات أساسية لبقاء ونماء الأفراد والمجتمعات، ومن هذه الاحتياجات ما هو حيوى، وبدونه يكون الانقطاع والفناء مثل التغذية والتكاثر، ومنها ما هو ضرورى مثل الملبس والمسكن ووسائل الانتقال، وهناك ما نشأ وتطور مع تقدم الإنسانية مثل اللغة والنظم السياسية والاقتصادية لضبط حركة الأفراد والمجتمعات، وكذلك قواعد العلاقات الاجتماعية من زواج وقرابة وتحديد دور الذكر والأنثى وطبيعة الروابط داخل الأسرة، وكذلك نظم ووسائل نقل الخبرات والمعارف من الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة من تعليم وتدريب، وطرق مكافحة المرض والعلاج . . وغير ذلك وكثير من هذه الممارسات تفى بالاحتياجات النفسية للفرد بجانب الاحتياجات البيولوچية .

يتم تحقيق هذه الاحتياجات بوسائل وطرق مختلفة فى المراحل المختلفة لتطور المجتمعات البشرية فى المناطق المختلفة من هذا الكوكب الذى نعيش عليه . وفى كل مجتمع محدد فى زمن محدد، تتحقق الاحتياجات بشبكة من الأعمال والنشاطات التى تشكل عادات وتقاليد ونظم يتعارف عليها ويقبلها الأغلب الأعم من أفراد هذا المجتمع .

ولنأخذ مثلاً الحاجة إلى الطعام حتى تتحقق الحيوية والنشاط، ففى سالف الأزمان، كان الفرد من بنى البشر يجمع الثمار ويصيد الحيوان فى البر والبحر والطائر فى الجو، الموجود فى البيئة المحيطة وينتقل الإنسان من مكان إلى آخر باحثًا عن هذا الطعام، ثم استقر على شواطئ الأنهار وبدأ فى استزراع الأرض وإنتاج طعامه واستأنس الحيوان، ثم أنتج الطعام بما يزيد عن حاجته مع تطور طرق الزراعة والرى، والحصاد والتخزين والنقل . . . إلخ، بل إن طرق تحضير الطعام للأكل تنوعت ما بين طازج ومطبوخ . . . إلخ، بل إن تقديم الطعام نفسه تنوعت صوره فى النوع والكمية والطعم واللون وغيرذلك، كل ذلك كوّن شبكة مترابطة من العادات والتقاليد داخل كل مجتمع فى طرق إنتاج الطعام وتخزينه وتوزيعه وتحضيره، وتقديمه واستهلاكه أيضًا، بما يسمى آداب المائدة بتفاصيلها الدقيقة - بل أصبح الطعام أخيراً أحد مظاهر الوضع الاجتماعى للفرد والأسرة .

أما عن التكاثر، فيعتبر الزواج وما يرتبط به من عادات وتقاليد فيما يخص اختيار الرفيق والإعداد والتنفيذ لهذا الزواج، وشروط استمراره وإنهائه هو الخلفية الثابتة

لتربية الأطفال وحماية حقوقهم وضمان استمرار بناء الأسرة وتعزيز القرابة وربط الأسرة فى كيانات أكبر، هذا بجانب كفاية الدوافع الغريزية الجنسية.

تتباين المجتمعات فى نسق التزاوج على مر الأزمان وفى الأماكن المختلفة، فقد مارس الإنسان ما يسمى التزاوج الجماعى؛ أى مجموعة من الذكور مع مجموعة من الإناث (Group Marriage)، وكذلك مجموعة من الذكور مع أنثى واحدة (غالبًا مايكون هؤلاء الذكور إخوة) (Polyandry)، أو ذكر واحد مع مجموعة من الإناث. وقد تكون الإناث أخوات. (Polygyny)، أو النمط الشائع والأكثر قبولاً حاليًا، وهو ذكر واحد مع أنثى واحدة (Monogamy)، وهذا التنوع فى أنساق الزواج مرتبط بنسب عدد الذكور إلى عدد الإناث داخل المجموعة، وكذلك العناصر الثقافية الأخرى من دين وعلوم واقتصاد وغير ذلك.

يختلف النسب والقرابة المرتبطة بالزواج وأنساقها ومصطلحاتها بين المجتمعات، وعادة يتم نسب الابن أو الابنة إلى أبيها فى المجتمعات ذات أنماط الزواج الفردى (Monogamy)، أو الذكر الواحد والإناث المتعددة (Polygyny)، أما فى أنماط الزواج الأخرى فيكون نسب المولود إلى أمه الأكثر قبولاً. وعادة فى الأسر الصغيرة (Nuclear family) فتستخدم مصطلحات القرابة التى تحمل معانى محددة دقيقة مثل الزوج، الزوجة، الابن، الابنة، الأم، الأب، الأخ، والأخت. أما خارج هذا الإطار فمصطلحات القرابة متنوعة وغالبًا معناها غير محدد ويختلف بين المجتمعات. وأهمية ذلك أن أنساق القرابة تشارك فى تنظيم وتحديد سلوك الأفراد وواجباتهم نحو بعضهم البعض داخل المجتمعات. ورغم أن الزواج يعتبر رابطة دائمة، فإن هناك ظروفًا وشروطًا لإنهائه بالطلاق، وصعوبة وسهولة إجراءات الطلاق تختلف من مجتمع إلى آخر، لكن كل المجتمعات تفضل استمرار الزواج.

وفى كل الأحوال، يتفق المختصون على أنه يصعب اعتبار أحد هذه الأنماط سواء فى الزواج أو الطلاق أكثر بُدائية من الآخر، بل لابد عند الحكم الأخذ فى الاعتبار شبكة العناصر الثقافية داخل كل مجتمع وخاصة الدين، والعبرة فى النهاية هى مدى قوة المجتمع ومنعته مع شيوع القيم الفاضلة من حرية وعدل، وإحسان وتراحم.

أما عن الملبس، فقد نشأت الحاجة إلى الملبس لحماية الإنسان وبقائه أمام غوائل، الطبيعة من برد وعواصف وأنواء، ولكن هناك أيضًا دافع الحياء عند الإنسان المدرك

لوجوده ووجود الآخرين، مماجعله يستر أجزاء من جسمه يعتبر أن الكشف عنها يعنى فساد الذوق وغير مناسب وغير مقبول. لكن الملبس له أيضًا وظائف أخرى مثل التزين وتجميل المظهر الذى أخذ أبعاداً واسعة فى المناطق والأزمان المختلفة.

نوع الملبس وشكله يعتمد على مصادر المواد التى تُصنع منه، وكذلك تقنية الإعداد وطبيعة الظروف المناخية ومدى الحاجة للوقاية من قسوتها؛ وفى البداية استخدم الإنسان جلود الحيوان وبعض النباتات فى البيئه المحيطة لستر جسده. ومن المعروف أن التفصيل والخياطة سبقت الغزل ونسج الأقمشة، ويعتبر استخدام الأقمشة وتقنية تصنيعها حديثًا نسبيًا، وتطور بصورة واضحة فى المناطق الباردة.

كل ذلك يعكس تنوعًا كبيراً فى عادات وتقاليد إعداد واستخدام الملبس.

والمسكن كالملبس، يتنوع فى مادة بنائه وتقنية البناء والشكل والحجم فى مناطق العالم المختلفة، ويعتمد أيضًا على المصادر الطبيعية ومدى الحاجة للحماية من البيئه والتطور التقنى فى وسائل التقطيع، واللصق والتثبيت وسهولة الاتصال والاطلاع على خبرات الآخرين، وقد يكون المسكن ثابتًا فى الأرض أو متحركًا ينقل مع صاحبه حسب طبيعة المجتمع.

أما عن وسائل الانتقال، فقد تنقل الإنسان على سطح الأرض فى البداية مستخدمًا طاقته البدنية، وبدأ فى استخدام الزلأقات فى المناطق الجليدية، ثم استخدم طاقة الحيوان، ثم استخدم العجلة (Wheel)، ثم الاستخدام المشترك لطاقته أو طاقة الحيوان مع العجلة، ثم أخيراً استفاد من طاقة الاحتراق الخارجى، ثم الداخلى واستخدم الطاقة المتولدة فى تحريك العجلة والانتقال من مكان إلى مكان. أما على سطح الماء، فقد تم استخدام ظاهرة الطفو وبنى القوارب التى حركها بطاقته البدنية، ثم بطاقة الرياح ثم بالطاقة الميكانيكية، وأخيراً صنع الطائرة وانتقل راكبًا الهواء. وقد تطورت حياة الإنسان على هذا الكوكب فى القرون الأخيرة بصورة صارخة نتيجة لسرعة تطور وسائل الانتقال، إلا أن سرعة تغيير العادات والتقاليد داخل المجتمعات، كانت وما زالت، أبطأ بصورة واضحة مما أوجد الكثير من عدم الفهم والجهالات المتبادلة، وظهرت كثير من المشاكل التى جعلت الصورة غائمة أو أقل نصوعًا مما يجب.

الباب الثالث

هل هناك خصوصية عرقية للثقافة ؟

- الفرق بين التصنيف العرقى والتمييز العرقى
- العلاقة بين العرق والثقافة

• الفرق بين التصنيف العرقى والتمييز العرقى

رغم وجود صفات مشتركة تجمع كل البشر المعاصرين ككائنات حية فى نوع واحد قابل للتزاوج بين أفراده، وإعطاء نسل قابل للتكاثر والاستمرار، فإن التنوع فى الشكل والوظيفة والسلوك داخل هذا النوع حقيقة واقعة، فلا يوجد اثنان من البشر متطابقان تشريحيًا وفسيولوجيًا اللهم إلا التوائم المتماثلة من بويضة مخصبة واحدة.

وقد سبق الإشارة فى الفصل الأول إلى أن أفراد هذا النوع «الإنسان العاقل» يتجمعون فى مجموعات تشترك كل مجموعة فى بعض الصفات الفيزيقية، والتى تميزها عن الأخرى، وقد تسمى تلك المجموعات بالعناصر البشرية أو السلالات أو الأعراق.

تنوعت الأعراق نتيجة لانتشار الإنسان منتصب القامة على سطح الأرض، وقد واجه ضغوطًا بيئية متنوعة تبعًا لأماكن وصوله، والمقصود بالضغوط البيئية هى جغرافيا المكان من سهل وجبل، ومناخه من برد وحر، وطبيعة مياهه وهوائه ومغناطيسيته وإشعاعاته ونباتاته وحيواناته، والتركيب الكيميائى لهذه المكونات، وغير ذلك. كل هذه الضغوط قد أثرت فى التركيب الفيزيقى لجسم الإنسان، حتى يتواءم مع خصوصية البيئة التى يعيش فيها وجعلته أعراقًا، وشعوبًا، وقبائل.

ومنذ قديم الزمان عندما تحرك الإنسان من منطقة جغرافية إلى أخرى، لاحظ أن أقرانه من البشر مختلفون بدنيًا عما ألفه، من ناحية لون الجلد ولون الشعر، فهناك الأسود والأبيض، والأحمر والأصفر، وما بينهما، ومن ناحية لون العين فهناك ذوو العيون السوداء، والزرقاء، والخضراء، وأيضًا من ناحية حجم الجسم فهناك الأطول والأضخم وهناك الأقصر والأصغر، وأيضًا من ناحية الشكل وتناسب الأجزاء فهناك طويلو الأطراف وقصيرو الجذع، وقصيرو الأطراف طويلو الجذع، وهناك ذوو الوجوه العريضة المفلطحة وذوو الوجوه الضيقة الطويلة . . . وهكذا (انظر الباب الأول).

وقد سجل قدماء المصريين هذه الاختلافات البدنية بين البشر على الحجر منذ بداية التاريخ، وكتب عنها فلاسفة ومفكرو اليونان الأقدمون، ومن أشهر ما كتبه علماء العرب فى عصرهم الذهبى هو ماذكره المفكر العربى الإسلامى الشهير عبد الرحمن بن خلدون فى كتابه(العبر . . . .) عن الاختلافات الجسدية بين البشر فى أقاليم المعمورة المختلفة فى ذلك الزمان، وهناك العديد مما كتب فى القصص والروايات وأدب الرحلات عن تنوع البشر فى مواصفاتهم البدنية. لكن إخضاع هذه الاختلافات للترتيب والتنظيم، وتصنيف النوع الإنسانى إلى عناصر وأعراق كما هو مسجل فى المراجع العلمية اليوم، جاء متأخراً منذ نهاية القرن السابع عشر على يد الأوروبيين فيما يسمى عندهم بعصر العقل والعلم.

وتميز النوع من السمات الغريزية فى كثير من الأحياء، فالقطط والكلاب والخيول تستطيع تميز نوعها عن غيره من الأنواع، لكن الإنسان استطاع أيضًا التميز الفيزيقى بين الأعراق داخل النوع بناء على مواصفات مستفيضة ودقيقة.

ولما كانت الأنانية وحب الذات من الغرائز الأصيلة فى الكائن الحى لضرورتها فى أغلب الأحيان لبقائه وحماية وجوده، فإننا نجد الأطفال يسخرون من المنظر غير المألوف للوافد الغريب، ونقرأ أن الصينيين كانوا يصفون القوقازيين بالبرابرة ذوى الشعر الأحمر، أو البرابرة ذوى العيون الزرقاء، ومن المثير للدهشة أيضًا أن قبائل البوشمن سكان صحراء كلهارى فى جنوب غرب إفريقيا يعتبرون أنفسهم هم البشر الوحيدون وجميع الآخرين - مهما كانت ألوانهم - حيوانات وليسوا مثلهم من البشر. وعندما اكتشفوا أمريكا تساءل الأوروبيون عن السكان الأصليين من الهنود الحمر إن كانوا يتمون للنوع الإنسانى أم أنهم مخلوقات بُدَائية وليسو بشراً، وغنى عن الذكر استعباد الأفارقة السود فى أماكن كثيرة وعلى مدى العصور وحتى وقت قريب.

وغالبًا ما دام الوافد الغريب ودوداً يحمى ولا يؤذى، يضيف ولا يأخذ فإنه يكون مقبولاً، أما إن كان سارقًا أو غازيًا فهو عدو وهمجى.

ومن الغريب أن السارق الغازى يعتبر صاحب الأرض المنهوبة والثروة المسروقة، إن دافع عن قُوته وأرضه، عدواً وهمجيًا أيضًا، وأصبحت كل مجموعة قلقة من الأخرى وتشعر بالتهدَيد كلما ظهر الوافد الغريب.

من هنا نشأ ما يسمى بالعنصرية أوالتمييز العرقى، وهو يختلف عن التصنيف العرقى. فالمشتغلون ببيولوچيا الإنسان يجدُّون فى البحث عن المواصفات الفيزيقية والاختلافات البدنية بين الأعراق المتنوعة لما لذلك من فوائد فى التشخيص الدقيق لبعض الأمراض والانحرافات التى تصيب الأفراد، أو المجموعات ولا تصيب أخرى، وكذلك تفيد هذه الدراسات فى استنباط العلاجات والأدوية المناسبة لسمات بيولوچية عرقية خاصة فتكون أكثر فاعلية وتأثيراً. ومن الواضح أيضًا أن الأداء الوظيفى، وخاصة عند ممارسة بعض الرياضات البدنية، يكون أكفأ فى بعض الأعراق عن أخرى، لكل هذا فبيولوچيا الإنسان والتصنيف العرقى ضرورى ومفيد.

أما التميز العرقى فهو شيء آخر، ويعنى أن القدرات الثقافية والشخصية والقيم الأخلاقية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمواصفات الفيزيقية لبدن الإنسان، والتى تنوعت بين الأعراق، وعلى ذلك تتكون وجهة نظر معينة لكل مجموعة عرقية تجاه الأخرى، ويؤدى ذلك إلى الكبرياء والاستعلاء لكل مجموعة عرقية عن الأخرى، لكن أحداث التاريخ تؤكد أن العرق الأبيض كان (ولا يزال) الأكثر استكباراً و استعلاءً واستعباداً للأعراق الأخرى، والعرق الأسود هو الأكثر عبودية وامتهانًا من الآخرين.

والمقدرات الثقافية - كما سبق ذكرها - هى نتاج عمل العقل، والعقل هو المخ العضوى فى حالة نشاط، وإنتاج ثقافة بشرط أن يكون هذا الإنتاج متصفًا بالوضوح والصدق من ناحية، وملتزمًا بالقيم الأخلاقية الرفيعة من جهة أخرى.

يعتقد كثير من علماء التاريخ الطبيعى للإنسان أن المخ البشرى لم يتغير فى تركيبه التشريحى خلال الخمسين ألف سنة الأخيرة من حياة الإنسان. هذا المخ يحتوى على عدة بلايين من الخلايا العصبية المترابطة مع بعضها البعض فى شبكة فائقة الاتصال وإن كانت منتظمة فى مجموعات متخصصة الوظائف. هذا ينطبق على أى إنسان فى أى مكان على هذا الكوكب - الأرض. ولكن إذا نظرنا إلى عمل المخ البشرى، ورغم قلة معارفنا الموضوعية عن كيفية أدائه لوظائفه حتى الآن، فإنه يمكننا عرض هذه الوظائف على النحو التالى:

أولاً: أنه ينظم وظائف البدن ويعمل على حفظ بقاء الكائن الحى من الناحية

البيولوجية مثله فى ذلك مثل باقى الكائنات الحية، وذلك عن طريق السعى والصراع فى سبيل الطعام والتكاثر والأمان.

ثانيًا: يتميز مخ الانسان بوظائف أعقد وأوسع وأعمق تمتد إلى التخيل والتصور والذاكرة، مما يساعد على استنباط الحقائق الخافية وابتكار الجديد. والإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى يتواصل بلغة لها قواعدها وينتج ثقافة بما تتضمنه من عناصر مختلفة سبق ذكرها.. وهنا يكون الإنسان عاقلاً

ومع أنه لاتوجد دلائل تجعلنا نعتقد أن المخ البشرى كعضو قد تغير تشريحيًا على مدى تلك الآلاف الأخيرة من السنين، فإننا نلاحظ التغير الواضح والبين فى نتائج نشاطه على مدى القرون، نجد الاختلافات فى نتائج ذلك النشاط من منطقة جغرافية إلى أخرى، وذلك يجعلنا نتوقع أن تلك النتائج مرتبطة إلى حد مؤثر بتنبيه الخصوصيات البيئية فى مفهومها الشامل لمجموعات الخلايا العصبية مع تراكم الخبرة والمقدرة على حفظها واستدعائها، فكلما كانت المنبهات متنوعة ومثيرة أدت إلى التنوع فى نشاط وأداء مجموعات الخلايا العصبية وازدياد تعقيداتها.

كل هذا يمكن أن يحدث إذا التزمنا بالبحث فى حدود الأساس البيولوجى المادى للنشاط العقلى فقط.

• العلاقة بين العرق والثقافة

ولنا أن نتساءل: هل الفنلنديون، على سبيل المثال، يتكلمون اللغة الفنلندية؛ لأن جلودهم بيضاء وعيونهم زرقاء وشعورهم شقراء ؟ وهل اليمنيون يتكلمون العربية؛ لأنهم قصار القامة نحيفو البدن جلدهم داكن وعيونهم سوداء... ؟ إلخ... أم أنه بجانب الضغوط البيئية المحددة هناك أيضًا الروحانى المقدس الآتى من وراء الطبيعة؛ من الخالق الأعظم؟.

ولننظر إلى ملكات العقل الإنسانى المتفردة ومنها نظم الشعر أو استخدام اللغة فى التفكير والتعبير والتواصل بأسلوب يجمع بين نشوة الوجدان، ورقة الأحاسيس ولذة

المعرفة؛ تلك الملكة التى تجمع بين المقدرة الفائقة على التخيل وابتكار الأحلام. . . هل هذه الملكات مرتبطة بمواصفات فيزيقية للبدن ؟!

ثم لنأخذ ملكة الفضول المعرفى والبحث العلمى، تلك الملكات التى تجعل الإنسان يسعى للتعرف على الطبيعة من حوله فى أدق تفاصيلها، والتعبير عن ذلك فى أشمل القوانين. . . هل مورست تلك المقدرات العقلية فوراً وفى عرق ما بخلاف باقى العروق البشرية الأخرى ؟ أم أن العقل الإنسانى مر بمراحل متعددة ومتقدمة فى التركيب مع تراكم الخبرات؟ فمن «لا تفكير»، إلى«خرافة»، إلى «منطق»، إلى «ترميز» إلى «تجريب»والبقية تأتى، وقد ساهم كل البشر فى هذه المراحل فى أماكن كثيرة وفى فترات زمنية مختلفة وبآليات معرفية متنوعة.

إننا نلاحظ عقلاً يهتم بالتفاصيل الظاهرة مهما كانت دقيقة ويرتبها ويربطها مع بعضها البعض، وآخر يهتم بالاتجاه العام والصورة الكلية والتأثير النهائى بغض النظر عن التفاصيل، وهذا لايعنى أن أحدهما لا يستطيع عمل الآخر، بل إن كليهما يستطيعان عمل الاثنين معًا إذا توافرت الإرادة والوعى.

وكما أن الأفراد يتفردون بالأحاسيس والمشاعر الذاتية، والسلوك الخاص فى الموقف الواحد أو أمام الوقائع المادية المتماثلة، فكذلك لكل أمة، فى الأغلب، شخصيتها ولكل قوم خصوصيتهم ولكل لغة عبقريتها.

يتفق الكثير من المفكرين على أن النتاج الثقافى لكل أمة يعكس تجاربها مع بيئتها الخاصة، ونوع التنبيه ومدى تأثيره فى المجموعات العصبية فائقة العدد، وليست مرتبطة بالصفات الفيزيقية للبدن المميزة للأعراق.

إن النظر إلى سكان العالم اليوم يجدهم قسمين، إما مجتمعات غنية و قادرة على حماية نفسها متقدمة الثقافة، وخاصة عناصرها الفاعلة فى الحياة اليومية كالعلم والتكنولوچيا، وإمّا مجتمعات أخرى فقيرة محدودة المقدرات الثقافية، وعلى ذلك فأمر المستقبل ـ فى حدود المنظور ـ بيد القوى، وأمامه اختيارات ثلاثة:

١ ـ إما الانعزال وترك الفقراء وشأنهم.

٢ ـ يأخذ بيد الفقراء ويساعدهم فى فتح طرق العمل و البناء واستغلال طاقاتهم دون أن يكونوا عبئًا ثقيلاً عليه.

٣ ـ استغلال مجموعة الفقراء الضعفاء واستخدامهم كقوة عاملة يحددون لها ما تعمل، ويحددون العائد من هذا العمل، ينهبون ثرواتهم ويقيدون حرياتهم بسطوة القوة المعرفية و العسكرية.

إنى أعتقد أن التكامل بين الثقافات فى الزمن الواحد هو المقدمة لما نتوقعه من نضوج مستقبل الإنسان الفكرى، و هو الحقيقة الواحدة القابلة للتصديق.

لقد مضى وقت الانعزال وأصبحت الكرة الأرضية قرية كوكبية (كما يقولون)، وسكانها يتنقلون بين أجزائها بسرعة طوت الزمن وسهولة اختزلت الجهد، كما أننا فى نهاية عصر العبودية والاستغلال؛ لأنه وإن كان الفارق فى القوة المادية واسعًا ومؤثرًا ورهيبًا، فإن إرادة الحرية قويت ونمت وأصبحت أقوى من غريزة حب الحياة. لذلك فإن مفهوم التصادم و التصارع كما يمارسه الإنسان حتى اليوم، ولأمد لا نعرف مداه، هو نشاط يعكس الطبيعة البيولوچية للإنسان، بل وسيطرتها أحيانًا على تفكيره وتوظيف هذا الفكر فى سبيل حفظ البقاء ولو على حساب الآخرين، وهذا بدوره يعنى فقرًا فى الفكر وعودة بنا إلى البدائية.

* * *

الباب الرابع

التقدم

- الإنسان كفرد
- العواطف والمشاعر والتذوق
- تذوق الجمال
- الإنسان كوحدة بناء لمجتمع
- الاقتصاد والسياسة

مفهوم التقدم عندنا لايخلو من الغموض والالتباس. فما التقدم ؟ وكيف نفهم مضمونه (كلفظ ومصطلح)؟

إن كلمة التقدم تعنى لغويًا السير إلى الأمام أو الحركة إلى جهة معينة، وهو ضد التأخر أو التراجع أو التخلف. وقد يكون نحو نهاية محددة سلفًا والاتجاه نحو غاية معينة فى مجال محدد والاقتراب التدريجى منها. وقد يكون التقدم من (الناحية الفلسفية) غير متناه؛ أى انتقال ضرورى من حد سابق إلى حد لاحق بدون نهاية كما فى تسلسل الأعداد مثلاً. . !

إن مضمون التقدم كمصطلح هو فى جوهر انتقال تدريجى فى نظام متصل من الأدنى إلى الأعلى أو من الضعف إلى القوة، أو من النقص إلى الكمال، أو من الحسن إلى الأحسن. ويختلف حكم الناس على طبيعة هذا الانتقال باختلاف القيم التى يتصورونها أو يؤمنون بها، كما تتباين آراء المفكرين فى كيفية الانتقال، فى هذا النظام المتصل، ما بين الحركة فى خط مستقيم أو فى خط لولبى.

ومن طبيعة التقدم أنه تدريجى فى الغالب، لكنه يجب ألا نخلط بينه وبين الشدة أو الازدياد، كأن نقول تقدم المرض أو تقدم الفساد؛ لأن شدة المرض وازدياد الفساد ليست انتقالاً من الضعف إلى القوة أو من النقص إلى الكمال.

إذن ما حالة الكمال والقوة التى يتقدم إليها ويسعى نحوها الإنسان ؟

وللإجابة عن هذا السؤال علينا أن نحدد ما المقصود بالإنسان ؟ هل هو الفرد الذى يعيش فى زمن معين وفى مكان محدد، والكون بالنسبة له هو ما يرتبط بوعيه فى فترات حياته الشخصية ؟ أم الإنسان هو وحدة بناء مجتمع يضم أفرادًا كثيرين وأجيالاً متعاقبة لهم طموحات مشتركة فى جانب ومتنافسة فى جانب آخر؟

وهل هناك نموذج معيارى محدد المواصفات أتى من السماء، من خارج الوعى

الإنسانى، لمفهوم التقدم من جميع نواحيه، وقابل للتطبيق، ويمكن تحديد درجة تقدم الفرد أو المجتمع بمقارنة حاله بهذا النموذج ومدى قربه أو بعده عن مواصفاته؟

ينظر بعض المفكرين فى الثقافة الغربية الحديثة للإنسان كفرد بأنه جزء من الطبيعة؛ أى مستمد فى بنائه من الطبيعة وجميع المواد الداخلة فى تركيب بدنه من الطبيعة، ولكنها منتظمة فى صورة كائن حى يؤدى مجموعة من الوظائف البيولوچية وعلى رأسها (فى حالة الإنسان) التفكير والعقل. يرى هؤلاء المفكرون أن الإنسان فى حركته يخضع للقواعد الحتمية الصلبة للطبيعة وقوانين عملها فى كل الأحوال، ويمكن أن ينظم سلوكه فى صورة آلية على أسس بيولوچية محضة ويمكن توقع فعله ورد فعله بدقة، فالإنسان فى نظرهم واحد الدوافع والأهداف، وهى فيض الإنتاج وتراكم الثروة وتحقيق الأمان لحماية هذه الثروة، وعلى ذلك ينظر لحياة الإنسان بأنها صراع، وتقدمه بأنه ازدياد المهارة فى القنص والصيد وصنع آلات الافتراس والانتصار.

وهناك مفكرون آخرون، وغالبًا من الشرق، يرون الإنسان ثنائى الجوهر؛ أى إنه فى جانب منه مادى التكوين من عناصر الطبيعة يلتزم بقوانينها ككائن حى، أما الجانب الثانى فهو روحى سماوى فيه قبس مما فوق الطبيعة، يوصل فيه الضمير والوجدان ويبين له الفرق بين الخير والشر. يرى هؤلاء المفكرون أن النظر إلى الإنسان ككائن بيولوچى فقط يجعله كائنًا أنانيًا محبًا لذاته من أجل بقائه، غير مكترث بالكون ويبحث دومًا عن المنفعة واللذة الحسية، وعليه فى سبيل ذلك الصراع والعدوانية، والتربص والافتراس، دون أن يتحمل أى أعباء أخلاقية إلا ما يحقق منفعته فى ظرف معين.

أما النظر إلى الجانب الروحى السماوى، فهو الذى يساند الإنسان للتميز بين العدل والظلم، بين التراحم والعدوانية، وأوجد الدين والفنون والآداب، هو الذى أمدنا بمعابد قدماء المصريين، ولوحات روفائيل، وتماثيل مايكل أنجلو، وموسيقى تشايكوفسكى، وشعر المتنبى وأبى القاسم الشابى.

الإنسان كفرد

إذا نظرنا إلى موضوع التقدم على مستوى الفرد، أعتقد أنه علينا أن ننظر للإنسان مرة كجسد ومرة أخرى كروح.

(أ) من الناحية البدنية البيولوچية، نقول أنه تقدم من الطفولة إلى المراهقة إلى النضوج البدنى، وهو الغاية من النمو والنماء.

هناك العديد من الآراء عن ماهية النضوج البدنى للإنسان ومواصفاته، وسألخص هنا فكر غالبية العلماء المشتغلين بهذا الموضوع.

يصف البيولوچيون هذه الغاية بأنها الحال الذى يتصف فيه البدن بالمواصفات الآتية:

١ ـ التوازن البنائى: أى إن أعضاء البدن وأجزاءه كاملة التكوين متكاملة البناء متوازنة المكونات.

٢ ـ الكفاية الوظيفية: أى إن كل عضو يقوم بوظيفته على خير وجه.

٣ ـ الكمال والجمال فى الشكل والهيئة مع التناسق، والتناغم بين الشكل والوظيفة للأعضاء كأجزاء وللبدن ككيان كامل متكامل.

وعلى ذلك يمكن الحكم على مدى نضوج أى فرد بمقارنته بمعايير للمواصفات الثلاثة (البناء، الوظيفة، التناسق) متفق عليها ومناسبة للنوع والعمر فى مكان معين وفى زمن محدد. وقد قام المشتغلون بهذه الفروع من العلوم بالدراسة والبحث وتم وضع الكثير من هذه المعايير فى العديد من المجتمعات الإنسانية.

وعلينا أن نتساءل هل هذه المواصفات وتلك المعايير ثابتة، وستبقى كما هى إلى الأبد؟ أم سيحدث تغيير ما فى المستقبل كما حدث فى الماضى من تطور وارتقاء لبناء ووظائف الجسم ؟ والإجابة عن هذا السؤال أظن هو دوام التغيير مما يحتم متابعة ومواءمة هذه المعايير باستمرار.

(ب) على الرغم من أن الإنسان المعاصر استطاع بعلمه أن يدرس جسده ويتعرف شكل ومكونات هذا البدن، ووظائفه ولذاته وآلامه، فإنه لا يعرف شيئًا عن الروح.

الروح مجهول القوام والاعتقاد بوجودها هو أصدق العقائد الغيبية التى تمثل أساساً للدين. وهناك الكثير من المفكرين والعلماء الذين يؤكدون أنه لا تناقض بين الروح والجسد فهما قوام الحياة الإنسانية ولا ينكر أحدهما فى سبيل الآخر.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾
[الإسراء: ٨٥].

إن الإدراك السليم يدفعنا إلى أن ننظر إلى الإنسان كعقل وضمير فى المقام الأول وليس مجرد خلايا وأعضاء ووظائف أعضاء فقط.

أطلق علماء الحياة على الإنسان المعاصر مصطلح (Homo-Sapienes) أو «الإنسان العاقل»؛ الإنسان الذى يملك عقلاً وذكاءً، القادر على الوعى بذاته وبالكون من حوله، المخلوق المميز صاحب الذوق والإحساس.

وكما سبق أن ذكرنا، فإن العقل هو المخ فى حالة نشاط وأداء وظائف، ورغم أن المخ محدود فى تكوينه البنائى لكنه غير محدود فى نشاطه، فهناك العامل البسيط وهناك العالم الكاشف لقوانين الطبيعة. ولحسن حظ الإنسان أنه بعد رحلة تطور طويلة أصبح مخه الآن آية رائعة فى هذا الوجود، بل يعتبر قمة التطور فى عالم الأحياء.

إذا نظرنا إلى مراحل تطور الجهاز العصبى فى الأحياء، فإننا نجد أربع مراحل هى:

١ ـ جهاز عصبى ذو هدف، هو التنبيه للجسم الحى بالعوامل البيئية المحيطة، فيتم الفعل الانعكاسى الذى يحفظ للكائن بقاءه ونماءه.

٢ ـ جهاز عصبى يستطيع أن يتعلم من البيئة المحيطة فيكون لفعل الانعكاس اختيار بين متنوعات.. وتتحكم فى هاتين المرحلتين الچينات بصفة مطلقة.

٣ ـ مرحلة التعلم عن غير طريق المورثات (الچينات) وهى مرحلة استقبال وتخزين واستدعاء المعلومات ونقلها من جيل إلى جيل، وهذا مايتمتع به الإنسان العاقل.

٤ ـ العقل الجماعى للمجتمع، وهذا مايثير مخ الفرد للاهتمام بالآخرين، والاقتناع بالعمل المشترك لخير الجماعة.

وفى البداية، استخدم الإنسان عقله لبقائه وحفظ نوعه بوسائل حيوانية محضة فى صراعه مع الطبيعة المحيطة به من جمادات وأحياء أقل منه حيلة وفكراً، ولكن عندما امتد الصراع إلى الآخرين من أبناء نوعه، تنوعت وتطورت وسائله للبقاء وأصبح العقل روية وتدبراً وبصيرة تنفذ وراء الأبصار، فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور، أصبح العقل مرشداً يميز بين الخير والشر، بين الهداية والضلال، بل وازعًا يعقل ويمنع صاحبه مما تأباه فطرته.

إن المخ الإنسانى يعتبر قمة التطور فى البناء والتكوين من الناحية البيولوجية بمقارنته بالجهاز العصبى لسائر الأحياء، وقد تطور من ناحية البناء ليصبح صالحًا ومهيئًا لينتج فكراً إنسانيًا يتسم بالرفعة والسمو والوجدان والمشاعر التى نصفها بالرقة والرقى.

وصحة وسلامة المخ كعضو من البدن الإنسانى عنصر حيوى لسلامة العقل والرشد، ولكن العقل الإنسانى ليس هو المخ المادى، ولكن أضيفت له طاقة أو محرك من كيان آخر، ويشرح بعض المفكرين ذلك فيقولون: إذا أخذنا آلة الكمان مثلاً نجدها مصنوعة من أخشاب وأوتار، ولكن فى حالة تنشيطها ينتج عنها موسيقى تطرب وتشجى، وهذه الموسيقى ليست أخشابًا وأوتاراً، بل أضيف لهذه المادة شىء آخر من كيان غير مادى، والتفاعل بين الاثنين ـ المادى وغير المادى هو الذى ينتج عنه النغمات وما تتركه فى النفس من أحاسيس.

كذلك مخ الإنسان أضيفت له روحه فأصبح عقله الذى يتدبر أمره، ويلاحظ أن العلوم التى تبحث فى العقل الإنسانى وملكاته تسمى علوم النفس ولاتسمى علوم العقل، وتشمل من الناحية المعرفية (Cognition) دراسة الذكاء والأخلاق والسلوك والضمير والدوافع والغرائز والعواطف. . . . وغير ذلك.

إذن كيف يمكن الحكم على هذه المواصفات بالتقدم أو التأخر؟

هناك محاولات لوضع معايير لبعض هذه الملكات العقلية، ويمكن على أساسها قياس و تقييم هذا النشاط الذهنى فى الفرد بالنسبة لفرد آخر.

ولنأخذ الذكاء على سبيل المثال:

يُعّرف الذكاء عادة على أنه المقدرة على تحديد الهدف بوضوح والعمل بفاعلية لتحقيقه في بيئة معينة. وهناك العديد من الاختبارات التى تحدد ما يسمى بمعامل الذكاء؛ وخاصة في الطفل، وذلك بحساب عمر النضوج العقلى كنسبة مئوية من العمر الفعلى بالسنوات منذ المولد. وطبعًا عمر النضوج العقلى هذا يحدد بناء على اختبارات وأسئلة وأجوبة فى ثلاثة مناحى من النشاط الذهنى؛ وهى الأرقام والحساب وثانيًا اللغة وثالثًا الأشكال، وفى الدول الأوروبية والأمريكية هناك الكثير من الدراسات لتحديد هذه المقدرات فى الأغلب الأعم من أفراد ومجموعات الدراسة، والمفترض أن الذى يحقق معامل ذكاء أكثر من ١٠٠٪ فهو يتمتع بتقدم ملكة الذكاء على الآخرين الذين يحققون نسبة أقل.

وتحدد الأسئلة والأجوبة فى هذه الاختبارات بواسطة مخطط الدراسة بناءً على الثقافة العامة فى ذلك المجتمع ومواصفاتها التفصيلية، وعلى ذلك فهى تساعد وتعطى إطارًا عامًا للتقييم فى مجتمعات أخرى، ولكنها ليست دقيقة فى التعبير عن مستوى الذكاء الفعلى ومن جوانبه المختلفة فى ثقافات أخرى.

ولنأخذ الضمير أيضًا، وهو مايناط به محاسبة النفس لدفع الإنسان للأعمال أو الامتناع عنها بدافع من داخل ذاته دون تأثير من رقيب خارجى، ولا خوفًا من عرف أو قانون وضعى.

كيف يمكن الحكم بأن هذا الفرد له ضمير متقدم عن ضمير فرد آخر ؟

الأمر هنا متروك للآخرين المحيطين وحكمهم مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالثقافة العامة داخل هذا المجتمع وخاصة قيمه الدينية وقوانينه الوضعية وأعرافه وتقاليده.

وكذلك إذا أخذنا الأخلاق والقيم، يكون الحكم عليها بالتقدم والتأخر بالنسبة للفرد حسب السائد فيها فى مجتمعه وثقافته.

إن الحس الأخلاقى فى رأى كثيرين من الفلاسفة، هو حس فطرى كامن فى نفس الإنسان ويميزه عن سائر الأحياء، لكن يمكن للظروف البيئية و التربية والتدريب من صقله وتنميته وتطوير الجوانب الإيجابية، أو طمسه وتخزينه وتأكيد الجوانب السلبية فيه. وهناك اختلاف فى الرأى بين المثقفين والثقافات عن ارتباط الحس الأخلاقى بأى من الوجدان أو العقل. فالشرقيون عامة يربطون الحس الأخلاقى بالوجدان ويمارسون

الفضائل لحسنها ولذاتها دون انتظار لعائد مادى أو معنوى، فالصدق وعمل الخير أخلاق تمارس لذاتها ولما تسبغه على النفس من رضا واطمئنان دون انتظار لقيمة اجتماعية أو فائدة مادية.

هناك أيضًا بعض المفكرين الغربيين البارزين الذين يربطون بين الحس الأخلاقى والعقل، ويؤكدون بأن الأخلاق ما هى إلا إرادة عقلية وممارستها مشروطة بالعائد من هذه الممارسة، وقد مثل هذا الفكر الأساسى لظهور المذاهب النفعية والنظر للإنسان ككائن بيولوچى محض ولكنه متفرد فى خصائصه.

من المؤشرات المهمة لمدى تقدم الفرد هو درجة تعليمه وعدد السنوات الدراسية التى قضاها فى تحصيل المعارف، رغم انتباهنا إلى أن تقييم مستوى التعليم بالسنوات ليس مرادفًا لكمية المعارف المحصلة، حيث إن إدراك الفرد وفهمه لما يتعلم تختلف من شخص إلى آخر، ويصعب التمييز بين الأفراد فى درجة الفهم والاستيعاب بناءً على وسائل الاختبار المتبعة بصورة تقليدية. كذلك هناك فرق بين المعرفة والحكمة؛ أى بين المعرفة واستخدمها المفيد فى الحياة اليومية، ذلك أن الحكمة هى استخدام المعارف الصحيحة فى المكان المناسب وفى الوقت المناسب.

ومن المعايير الأخرى للحكم على تقدم الفرد هو دخله المادى؛ الشهرى أو السنوى، ولكن لا يمكن اعتبار زيادة الدخل علامة للتقدم بدون ربطه بوسيلة الحصول عليه وطبيعة العمل الذى أداه. وسأقوم فيما يلى بشرح أكثر تفصيلاً للنواحى الاقتصادية.

العواطف والمشاعر والتذوق

هناك جوانب وسمات رئيسية وفاعلة فى طبيعة الإنسان تحدد علاقته بالبشر الآخرين والكون من حوله فى مجمله المتكامل وفى تفاصيله الدقيقة، هذه الجوانب هى: العواطف، والمشاعر، والأحاسيس الكامنة فى النفس الإنسانية، وإن كان لها بوادر أولية فى العديد من أنواع الحيوان كالخوف والغضب، والحب والحنان والوفاء، فعاطفة الخوف على سبيل المثال من أقوى وأعمق العواطف غورًا فى كثير من من الكائنات الحية ومنها الإنسان، ذلك أن الخوف يعتبره الكثيرون من المختصين أنه رد فعل غريزى لحماية

البدن أمام تهديد الأخطار وهو مرتبط ارتباطًا قويًا بعاطفة الغضب إما للدفاع عن نفسه ضد خطر الهجوم عليه، وإما الهروب بعيدًا نائيًا بنفسه عن خطر لا يستطيع مجابهته.

مظاهر الخوف واحدة فى جميع الأحياء الذين يتمتعون بعاطفة الخوف، ومنها زيادة إفراز بعض الهرمونات، سرعة ضربات القلب، عمق التنفس وسرعته، العرق البارد، انقباض عضلات الشعر، جحوظ العينين، تثبيط الجهاز الهضمى، تركيز الأحاسيس على الخطر من رؤية، وسمع، وشم وانشغال المخ كليًا بمصدر الخطر . . . وغير ذلك .

والمظاهر البدنية للخوف عند الإنسان هى نفسها عند سائر الكائنات الحية، ولكن فى حالة الإنسان ليست الأخطار إطار ما يهدد وجوده البدنى فقط، ولكن يضاف إليها ما يهدد طموحه وآماله وثروته ومركزه الاجتماعى وتقدمه المهنى . . . إلخ .

وعلى ذلك فرد الفعل و السلوك يختلف؛ لأن مخ الإنسان قد تطور بصورة فائقة وواسعة حتى عن أقرب الكائنات الحية إليه بيولوجيًا كالشمبانزى مثلاً، وأضيف لمخ الإنسان كثير من المراكز الحسية ذات الوظائف النوعية المتخصصة والجديدة؛ كالذاكرة وتخزين المعارف مثلاً ـ مما وسع وعمق من قدراته الحسية، أضف إلى ذلك خبراته الاجتماعية من معايشته للبشر فى مجتمعات ذات ثقافات متنوعة وبما تتضمنه من قيم ونظم أخلاقية، وعادات وتقاليد (انظر الثقافة) .

صار رد فعل الإنسان أمام عاطفة الخوف أو الحب مثلا، أكثر تعقيدًا، ومنها إمكانية التحكم فى ردود الأفعال الغريزية والتخطيط لردود أفعال أكثر تركيبًا حيث إن الجانب العاطفى للنفس الإنسانية عادة ما يكون خليطًا من المشاعر والأحاسيس، منها الإيجابى ومنها السلبى، منها الفاضل ومنها المعيب؛ ذلك لأن الأفراد والجماعات تختلف فيما بينها فى درجة نمو وصقل عواطفها من ناحية، وفى كيفية حدوثها فى مكانها وزمانها المناسبين، ومن ناحية أخرى فإن كانت هذه المشاعر إيجابية فى طبيعتها عالية فى درجة صقلها، وتستخدم فى مكانها وزمانها المناسب وتبقى تأثيراتها ترفع من قيمة الإنسان ككائن متميز يسمو بوجدانه إلى درجة من الرضا والاطمئنان، تملأ النفس وتجعلها سعيدة منتعشة مقبلة على الحياة، محبوبة ومفيدة تسعى إلى الخير لها ولغيرها من المخلوقات المشاركة لها فى الوجود، متجددة

العطاء دائمة الثناء، تمنع الأذى والشر عنها وعن غيرها وتتعاون للبر والتجويد وازدهار الحياة على هذا الكوكب.

يعتقد كثير من المفكرين، والذين يتبعون دراسة التفسير البيولوجى للسلوك، أنه حتى يكون هناك عاطفة عند الكائن الحى (الخوف مثلاً) فلا بد أن يتمتع بإمكانية التفاعل مع الأحداث دفاعًا وهجومًا، وثباتًا وهروبًا... أما إذا كان الكائن لا يستطيع أن يهاجم مصدر الخطر أو يهرب منه، مثل السلحفاة مثلاً، فإن هذا الكائن لا يتمتع بعاطفة الخوف أصلاً؛ أى إن العواطف فى رأى هذه المدرسة الفكرية مرتبطة بفعل مادى محسوس، أما رد الفعل فإما أن يكون ماديًا حركيًا محسوسًا بالنسبة للآخرين، وإما أن يكون داخليًا خافيًا غير محسوس للآخرين، وغالبًا ما يكون تأثير الحالة الأخيرة سلبيًا على البدن، وإن كان أحيانًا إيجابيًا من الناحية الاجتماعية.

لكن علينا أن نتساءل، هل يمكن أن توجد عواطف إنسانية غير مرتبطة بأفعال مادية، بل فقط بدافع معنوى؟ وما معنى «إنما الأعمال بالنيات» سواء أكان هناك فعل مادى أم لم يكن؟ وما معنى الخوف من الله والحساب والعقاب؟

وهذا التساؤل يدفعنا بطبيعة الحال إلى استرجاع وتأمل الخلاف الفلسفى و المنهجى عن طبيعة الإنسان: هل هو مجرد كائن بيولوچى ذى صفات متميزة حسب المدرسة الغربية الحديثة، أم أنه كائن مزدوج الطبيعة؟ أى إنه كائن بيولوچى يتمتع، من ناحية، بصفات كثير من الأحياء الأخرى، ولكنه فى نفس الوقت كائن به روح مقدسة يحسها بعض الناس، ولا يعرف كنهها الجميع!! تلك الروح التى تدفع الإنسان للإيمان بمعتقدات لا يستطيع إقامة الدليل المادى على وجودها، ولكنه يحس نفعها وتأثيرها الإيجابى على سلوكه وحياته.

إن الشرقيين، وعلى رأسهم الصوفيون والبوذيون، يحبون حبًا لذات الحب، ويعطون رغبة فى العطاء بدون انتظار مقابل، ويحسنون صلاحًا للنفس ورغبة فى الرضا والاطمئنان للذات. وذلك تناسقًا مع الجانب الروحى المقدس فى ذات الإنسان، ومن الناس من يصدق ومنهم من ينكر!! ويعتمد مدى التصديق والاقتناع بذلك على طبيعة الشخص وتكوينه ودرجة العمق فى إدراكه!!!.

لكن يبقى السؤال الصعب: كيف يمكن قياس التقدم والتأخر فى هذا الجانب الحيوى فى حياة الإنسان ؟ وكيف يمكن التمييز بين الإنسان رقيق الأحاسيس مرهف المشاعر مهذب الحديث صاحب الضمير الحى المميز - عن ذلك الإنسان متبلد الأحاسيس جاف المشاعر، لا يميز الرفعة من الوضاعة، أو الإسعاد من الإحزان بدرجاتهما العديدة؟ وما الطرق الموضوعية الدقيقة للوصول إلى إجابات متفق عليها؟

تذوق الجمال

الوعى الجمالى وتذوق الجمال من المشاعر الراقية الفطرية الكامنة فى النفس الإنسانية، لكن درجة هذا الوعى والقدرة على التذوق تختلف بين الأفراد والأعمار والثقافات.

يجد فلاسفة علم الجمال صعوبة فى تعريف الجمال تعريفًا جامعًا مانعًا، ويعتبره البعض مرادفًا للخير أو الحق، ويتفق معظم المفكرين على أن للجمال مواطن، كما أن للجمال مقومات.

ومواطن الجمال إما خارجية ظاهرة للحواس؛ كالألوان والأشكال والأصوات والحركات، وإما داخلية باطنة يدركها الوجدان، ومقومات الجمال من الناحية الظاهرية هى: التوازن، والتناسب، والتناسق، والتوافق، والتناغم، والانسجام فى مواطن الجمال؛ تلك المقومات التى يحسها الفرد، وتعد حاستا البصر والسمع عند الإنسان أهم حاستين تنقلان إلينا صور الجمال. ومقومات الجمال من الناحية العاطفية جودة المضمون المعرفى وتوافق الشكل مع المعنى، فإذا تذوق الفرد تلك المقومات الظاهرة والباطنة يحس بالارتياح والقبول، بل المتعة والطرب بما يؤدى لامتلاء واكتمال الإحساس بالحياة.

والجمال فى الشىء الجميل لا يكون بتقليد الطبيعة تقليداً حرفيًا، ولكن بإضافة تعبير حرفىٍّ ناجح ومؤثر من روح الإنسان وخياله الممتد وراء المحسوس، فأصل الجمال فى رأى الكثيرين هو القدرة على تكوين الذهنية، والمقدرة التخيلية للفنان المبدع أو الشخص المتذوق على السواء. وتلك مقدرة كامنة فى عقل الإنسان تختلف عن المقدرة الفكرية المنطقية وتسبقها فى الوجود.

ولا يمكن تفسير الجمال فى الموجودات بالمصادفة، أو بالضرورة أو الانتخاب الطبيعى للمنفعة؛ لأن الجمال يتجاوز الفائدة المادية ويعلو عليها، فليس الجميل هو المفيد ماديًا، بل هو ما يثير فى النفس، لمن يحسه، مشاعر الانبهار والتقدير والمتعة الحسية والمعنوية، كما يؤثر فى سلوكه ويدفعه إلى المودة والتراحم والبناء، وتأكيد القيم الأخلاقية الإيجابية فى حياة الإنسان. لذلك يعتبر الجمال وتذوقه تحديًا بالنسبة للبيولوجيين التطوريين، ومن أكثر الجوانب غموضًا فى كنه الإنسان وماهيته.

وتذوق الجمال كما يعتمد على المواهب الكامنة فى النفس، فهو أيضًا يعتمد على معرفة مواطنه ومقوماته عن طريق التربية والتعليم، ويعتمد أيضًا اعتمادًا رئيسيًا على التدريب والممارسة تحت إشراف الأكثر معرفة وتذوقًا.

وهنا يقفز السؤال المهم: هل تذوق الجمال وتقدير مقوماته نسبى أم مطلق؟ بمعنى هل هو ذاتى؛ أى ما يراه الفرد جميلاً قد يراه الآخر غير جميل؟ أم موضوعى؛ أى إن مقومات الجمال واحدة وطرق تقييمها متفق عليها بين كافة البشر؟

فإذا كانت مقومات الجمال موضوعية وطرق تقييمها متفق عليها، فإننا نستطيع أن نثبت صحة أحكامنا أن هذا الشىء جميل!!

وهناك محاولات فى كثير من التخصصات للاتفاق حول تعريف وتحديد التوافق والانسجام والتوازن فى الشىء على أسس موضوعية، وإن كان العنصر الشخصى المرتبط بالمقدرة والتخيلية والحس الجمالى عنصرًا يُعتَدُّ به ولا يمكن إغفاله.

وفى كل الأحوال كلما ازدادت مقدرة الفرد على تذوق الجمال ارتقى وتقدم فى مضمار الإنسانية.

الإنسان كوحدة بناء لمجتمع

وهذا ينقلنا إلى النظر والحكم على الفرد كوحدة بناء فى مجتمع ما، وكيف يمكن تقييم التقدم والتأخر فى هذا المجتمع؟.

(أ) الناحية البدنية والصحية

ولنبدأ بطرق الحكم على تقدم وتأخر المجموعات البشرية من الناحية البيولوچية والصحية، والتى ترتكز على العديد من الدراسات والخبرات التى قدمت المعايير وطرق القياس، والتقييم للمستوى البدنى والصحى لأفرادها، وقد وضعت الكثير من المعايير عن توزيع أحجام و أشكال و وظائف البدن فى الكثير من المجتمعات الإنسانية.

و عن طريق المقارنة بين هذه المعايير فى المجتمعات المختلفة، يمكن الحكم من هم الأكثر حجماً و الأثقل وزنا . . . و غير ذلك من المواصفات المورفولوچية و الوظيفية للبشر. لكن يصعب الحكم بالتقدم و التأخر بناءً على المواصفات الفيزيقية، وهناك اتفاق بين الأكاديميين على أنه لا يجوز التفاضُل بين الناس بناءً عليها إلا فيما يخص التناسب مع العمل المطلوب.

ومن المعايير المعتبرة فى التقيم، الحالة البدنية والصحية فى المجتمعات المختلفة، وحساب نسبة وفيات المواليد والأطفال عامة، ومدى انتشار الأمراض بينهم، وكفاية غذائهم وسلامة نموهم وسرعته، أيضًا حساب طول العمر المتوقع عند المولد، وكذلك مدى توافر إجراءات المتابعة والضبط لسلامة نقاء الشراب والطعام والهواء، وكذلك مدى فاعلية الإجراءات لتقليل الضجيج، ومحاربة التلوث السمعى والبصرى، والضغوط النفسية والعصبية.

من أهم هذه المعايير أيضًا حساب نسبة عدد السكان لمساحة الأرض المسكونة، أو ما يسمى قياس الكثافة السكانية، وصحة المسكن وتوفير المرافق بكافة أنواعها.

تقوم المجتمعات الإنسانية المعاصرة ببعض الإجراءات والمحاولات للرعاية الصحية والوقاية من الأمراض وحفظ البدن، و علاج المرض للجنسين وفى مختلف الأعمار، ومن المعايير المعتمدة فى المنظمات الدولية لهذا الغرض هو عدد الأطباء والممرضين وتوزيعهم جغرافيًا فى التخصصات المتنوعة بالنسبة لعدد السكان، عدد المستشفيات والعيادات والمراكز ووحدات الرعاية الصحية بالنسبة لعدد السكان، وكذلك توفير الدواء ووسائل العلاج بما يناسب دخل الأفراد.

إن وجود هذه المعايير والمقاييس فى مجتمع ما وإمكان تقيمها بدقة، قد يساعد على

تحديد مدى التقدم فى هذا المجتمع، فيما يخص الناحية البدنية والصحية، بالمقارنة لآخر.

(ب) الناحية الثقافية

حتى نحكم على أى مجتمع بالتقدم أو التأخر، علينا أن نُخضع كل عنصر من عناصر الثقافة للتقييم على ضوء التاريخ الإنسانى كله و على اتساع الكوكب.

إن ثقافة أى مجتمع هى شبكة من العناصر المترابطة فى المنشأ و التأثير؛ بعضها نتاج العقل بمفرده، كاللغة والفكر، وبعضها نتاج العقل و العضلات كالبناء والتكنولوچيا... و غيرها.

١ - اللغة

ونبدأ باللغة ونقول: كلما كانت لغة قوم وافرة الألفاظ، دقيقة المعانى، سلسة التعبير، قادرة على صياغة تجارب الناس ومعارفهم، ونقلها بين الأفراد بدون خلط أو تعقيد، كانت لغة متقدمة تزيد من تنوير العقول وثراء الفكر واتساع المعرفة مع عمق إدراكها.

واللغة وتطورها مرتبط ارتباطًا قويًا بتجارب الإنسان وتفاعله مع البيئة المحيطة من جماد، ونبات، وحيوان، وإنسان وغيرها، وما ينتج عن هذه التجارب من معرفة تبقى تصورًا ساكنًا وكامنًا فى الذهن إلى أن يستطيع أن يجد اللغة التى تساعد فى صياغة هذه المعرفة بدقة وتخرجها بصورة محسوسة لنفسه وللآخرين.

من المعروف أن هناك بعض اللغات التى حملت الفكر الإنسانى الرفيع فى فترات مختلفة من التاريخ، و بها مخزون المعرفة فى مختلف فروعها و فى مراحل تطورها، وتعتبر اليوم لغات حية ومستخدمة فى التنظيمات الدولية المعاصرة كهيئة الأمم المتحدة وغيرها. وهناك لغات أخرى يقتصر استخدامها على مجموعات محدودة العدد من الناس، ولكنهم يتمسكون بها ويعتبرونها ذخيرتهم ومخزون تجاربهم ومظهر تميزهم فى الحياة.

كلما استطاعت أمة أن تنقل خبرات الآخرين ومعارفهم إلى لغتها، زاد ذلك من قوتها ودفعها إلى تطوير هذه اللغة حتى تستطيع أن تمسك بكل ما ينتجه العقل الإنسانى.

وأعتقد أنه يمكن اليوم الحكم على لغة ما بالتقدم أو التأخر بمقدار ما يصدر بها من فكر وإنتاج للعقول والأفئدة فى مختلف العلوم والآداب. لكن ما يميز اللغة أيضًا ليس فقط كمية ما ينتج بها، بل نوعية هذا الإنتاج ومدى دقته وسهولة نقله من أمة إلى أخرى.

و فى كل الأحوال، تتقدم الأمم بسهولة إذا كانت لغة تعبيرها هى لغة تفكيرها، وبها تتم صياغة الفكرة الكامنة فى العقول، و بها يتم التعبير عنها و إخراجها بصورة محسوسة سواء مسموعة أو مقروءة.

٢ ـ الدين والقيم والأخلاق

ولنأخذ الدين كعنصر آخر من العناصر المركزية للثقافة، وكما سبق أن ذكرنا فإن الدين فى أساسه عقيدة إيمانية بماوراء الطبيعة من قوى، وقد تم تشخيص هذه القوى فى الديانات السماوية الثلاث بالله أو الرب. ومن صميم ديننا الإسلامى الحنيف أن لا إكراه فى الدين. . . لكم دينكم ولى دين. . . وعلى المسلم أن يجادل عن عقيدته بالتى هى أحسن.

هناك اختلافات بين المجموعات البشرية فى فهم العقائد، وكذلك فى ممارسة العبادات المرتبطة بالعقائد، لكن من المتفق عليه بين أئمة الفكر الإنسانى أنه كلما تسالمت العقيدة مع العقائد الأخرى وتجنبت تحقيرها وتلويثها الآخرين والاعتداء عليهم يمكن الحكم على أتباعها بأنهم متقدمون.

من الملاحظ أخيرًا أن بعض المجتمعات، وخاصة المتطورة ماديًا وتقنيًا، أخذت فى التحلل من العقائد الدينية وأصبحت تهاجم دين الآخر وتربط بينه وبين التخلف حينًا، بل والهمجية والإرهاب أحيانًا، وذلك كله بدوافع سياسية اقتصادية وليست لأسباب عقائدية إنسانية. هذا يعنى التخلف على المستوى الفكرى الإنسانى على الأقل لقادة تلك المجتمعات وصانعى سياساتهم. وهذا ينقلنا إلى النظر فى موضوع القيم والأخلاق والسلوك، وكيف يمكن الحكم عليها بأنها متقدمة أو متخلفة ؟

من المعروف أن الدين و العقيدة الدينية هى من أهم المصادر التى تدفع الفهم الإنسانى وتشكله فى موضوع القيم والأخلاق، وإن كانت كل العقائد تسعى بالإنسان لرفاهيته وسعادته، لكنها تحدد مجموعة من القيم النبيلة، تعتبرها هدفًا أسمى يجب

العمل على بلوغه، ومنها الحرية، والعدل، والإحسان، والتراحم، والمعرفة، والعمل. . . وهكذا.

هناك من المفكرين الأوروبيين من يقول: إن القيم النبيلة كالعدل والرحمة ما هى إلا حيل أخلاقية فى طبع الضعفاء لمساعدتهم على البقاء، وهذا يعوق التقدم الإنسانى! إذ يجب ألا يبقى إلا الأصحاء الأقوياء، فتكون إرادتهم هى الحق وسيادتهم هى الرحمة.

لكن القطاع الأكبر من الفلاسفة و المفكرين فى الشرق و الغرب على السواء يقولون إن القوة لا نعرفها إلا بالمقارنة بالضعف، والعدل لا نعرفه إلا على ضوء الظلم، والقوى لا يكون قويا إلا إذا استخدم قوته و أظهرها على الآخرين، و إذا كان الجميع أقوياء، تتحول المجتمعات البشرية إلى آلات صماء جامدة بلا تنافس و لا تدافع و لا طموح.

إن القسوة و الظلم يمكن أن يمارسه الضعيف و القوى على السواء، فالقسوة لا تدل على القوة و الرحمة لا تدل على الضعف، فالأطفال، على سبيل المثال رغم ضعفهم هم من أقسى المخلوقات. فالرحمة تتطلب نضجًا عاطفيًا و نفسيًا لتنقل الإنسان إلى درجة أسمى فى السلوك و التفاعل مع الآخرين، إذ عندما تقترن الرحمة بالقوة و تخدم القوة الحق يكون هذا هو التقدم الإنسانى، فليس هناك أكثر إنسانية من أن نستخدم القوة فى الدفاع عن الحق إن كان هذا الحق ضعيفًا لا يملك من الوسائل ما يحفظ أو يعيد حقًا مغتصبًا. هنا تبرز القيم الإنسانية الرفيعة التى تعتبر مقياسًا و معيارًا للتقدم الإنسانى المنشود.

وقد أضيفت فى القرون الأخيرة قيمة المنفعة بجهد عقلى إنسانى، بواسطة رجال الفكر الأوروبى الحديث، وذلك بدافع من تجاربهم وفهمهم لطبيعة الإنسان كجزء من الطبيعة الكبرى؛ ولذلك فهى فى نظرهم القيمة الأم والدافع الأول لمجموعة الأخلاق والسلوك التى يتبعها الإنسان لتحقيق تقدمه!

القيم النبيلة فى سموها ورفعتها كمفهوم عقلى، وغاية تسعى إليها النفس مرتبطة بأسلوب و وسائل تحقيقها على أرض الواقع حتى تكون محسوسة تضفى الاطمئنان والسعادة على النفس الإنسانية، ولكن إذا وجدت القيم الرفيعة وفشل الإنسان فى

سلوكه فى تحقيقها فى حياته اليومية، تكون بغير فائدة، بل تكون ضارة لما يؤدى إليه هذا التضارب بين الغاية والوسيلة من إفساد للنفس الإنسانية.

إن القيم الأخلاقية الجوهرية مرتبطة بروح الإنسان ووجدانه وليس ببدنه، وعلى ذلك فهى لا تتأثر بعمر الفرد أو بزمن الإنسانية، كما أنها لا تتبدل حسب المكان والظروف الاجتماعية أو الاقتصادية، فالصدق هو دائمًا الصدق، وكذلك مفهوم الأمانة والعدل. . . كل تلك قيم مرتبطة بالجوهر الروحى للإنسان، تدفعه إلى مجالات أرحب من مجرد تجنب الإيذاء البدنى أو السعى للمتع الحسية، بل تأخذ بيده إلى مجالات غير محدودة من المتع الروحية واللذة المعنوية.

كان الهدف الأول للدين هو السعى لمكارم الأخلاق، وترويض الشهوات، والتحكم فى الرغبات البيولوجية بما يرفع الإنسان من مدارك الحيوانية إلى مستوى أنبل من الوجود دون مبالغة أو إفراط، وبدون تعذيب الجسد أو كراهية متع الحياة؛ لأن ذلك فى رأى الكثيرين تشويه للعقائد الدينية.

ويقول فقهاء الدين الإسلامى المستنيرون بأن الإسلام كعقيدة دينية ربط بين الحركة فى الأرض والغاية النهائية منها، وهى إرضاء الروح وسكينة النفس مرورًا بالنصيب من الدنيا وكفاية البدن وصحته وسلامته؛ إذ إن سلطان التنوير والصلاح على الجسم الصحيح أقوى من سلطانه على الجسم الضعيف المريض.

إن إيمان أصحاب العقيدة الدينية بولائهم للخالق الأعظم صاحب القدرة المطلقة، ومصدر القوة والعزة والكرامة لا يعنى إهمالهم كجماعة للبحث عن أنسب الطرق والوسائل للحصول على تلك القوة والعزة فى حياتهم، إن قناعة المؤمن بأن الله قريب، ولا يوجد حواجز بينه وبين عباده لا يعنى الفردية والتفكك وانتظار الخير من المجهول، بل السعى لاستيعاب تجارب الآخرين؛ إخوانهم فى البشرية.

أعتقد أن تطويع القيم الإنسانية الرفيعة لكى تخدم قيمة المنفعة المادية الملموسة لمجتمع ما، تعتبر نوعًا من الأنانية والتعصب للذات ويعصف بالمفهوم الإنسانى المجرد للعدل والتراحم بين الناس.

إن المنفعة كقيمة قد توفر للإنسان الرفاهية الاقتصادية ولكنها قد تخرب المجتمع

بالنهب والتضليل، بل قد تخرب نفس الفرد كوحدة بناء هذا المجتمع، وتجعلها خاوية قلقة لاتأمن للمحيطين. .

٣ـ المعارف والعلوم

ولنلق نظرة على عالم المعرفة وكيف يمكن تقييم مدى تقدمه أو تأخره فى مجتمع ما. يقولَ بعض المفكرين المعاصرين أنه لاتوجد معرفة غير المعرفة العلمية؛ أى تلك المعارف المرتكزة على الترتيب والتنظيم، ويمكن تحقيقها أو تعديلها وبيان أوجه القصور بها عن طريق التجربة، والمشاهدة، باستخدام الحواس، والمنطق العقلى، والمطابقة مع واقع الحياة.

ويجب أن نميز بين المخزون المعرفى فى أمة ما والمعارف المتداولة بين الناس والمستخدمة فى سير سبل الحياة، وذلك حيث إن المعارف شيء واستخدامها فى الحياة اليومية شيء آخر، وبينهما لابد أن تتوافر ملكات ونشاطات تجعل من المعروف محسوساً.

والمعرفة فى ذاتها محايدة و مطلوبة فى كل فرع من فروعها، أو بقدر ما يستطيع الإنسان، ويحكم تطبيقها و العمل بمخرجاتها منظومة القيم داخل المجتمع، ويخضع لمختلف عناصر ثقافته و على رأسها الأخلاق و الدين.

وعلى العموم، أعتقد أن المعرفة العلمية غير المعرفة الشعبية أو الحرفية التى يستخدمها الناس فى قضاء حاجاتهم اليومية، وكلتاهما تختلفان عن بعضهما البعض فى كمية وكيفية دور العقل والوعى الناقد لمحتوى هذه المعارف؛ بمعنى أنه يمكن أن أكون نجاراً طوال حياتى أعرف كيف أصنع الكرسى بالتقليد للأكبر سنًا والأكثر خبرة فى صناعة الكراسى، وهنا سيكون نشاط العقل محدوداً فى إطار تنظيم الحركات العضلية، أما إذا زاد هذا النشاط العقلى وبدأ يمتد إلى نقد ما يجرى ومحاولة تحسينه، أو اقتصاد الجهد فى تنفيذه، أو البحث عن بدائل أكثر راحة وسلامة، فهنا قد بدأت المعرفة تصبح معرفة علمية.

ويمكن النظر إلى المعرفة العلمية نظرة مجردة كنشاط لعقل الإنسان كفرد يبحث فى مصادر هذه المعرفة، وتطورها فى مضمونها، ومدى صدق أو كذب مقولاتها. ويمكن

أيضًا النظر للمعرفة العلمية كنتاج لعقل إنسان يعيش فى مجتمع (بين أفراد لهم عقول أيضًا)، ويتأثر بالواقع الاجتماعى بما فيه من تفاعلات بين الأفراد أو أنساق أو نظم اجتماعية، فينعكس هذا التأثير على نوع المعرفة وعمقها، وقد تقيد التقاليد الاجتماعية المهيمنة الانطلاق الفكرى، وتمنع أى تغيرات فكرية جذرية.

والمعرفة العلمية فروع ومجالات وتخصصات؛ بعضها يتصل بالانسان والأخرى بالطبيعة، بعضها يبحث فى الصناعة، والأخرى فى الزراعة، بعضها متصل بالبناء والأخرى بالنقل . . . وهناك العديد من الاجتهادات لتصنيف العلوم وتقسيمها تبعًا لمادة البحث أو منهجه.

أعتقد أن من أنسب التصنيفات الموضوعية هو تقسيم المعارف العلمية إلى أربعة أقسام رئيسية كالآتى:

(أ) العلوم الطبيعية: والتى تبحث فى العالم المحسوس والمادة، ومنهجها الاستقراء التجريبى للتعرف على ماهية الطبيعة المحيطة بالإنسان (وبدن الإنسان نفسه أيضًا)، وعناصرها وخواصها وطريقة تفاعلات مكوناتها ونتائج هذه التفاعلات، ومنها علوم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، والبيولوجيا، وتطبيقاتها فى الطب والزراعة والهندسة. وغاية هذه العلوم الشرح و التحليل والربط بين السبب والنتيجة وأدوات هذه العلوم استخدام الحواس وتعظيمها والإدراك العقلى.

وقد أصبحت العلوم الطبيعية بالتدريج تكون لنفسها عالمًا خاصًا مؤلفًا من فروض وكيانات عقلية رياضية ليس لها وجود فى عالم الظواهر، كالطبيعة النظرية مثلاً، وذلك بهدف فهم أوضح أو أكثر انضباطًا للعالم المعقول. و اتجهت أخيرًا نحو الاحتمالية فى الرؤية، وتحديد درجة اليقين بجانب القوانين الجبرية الجامدة، وخاصة فى العلوم البيولوجية المتصلة بعالم الأحياء.

(ب) العلوم الرياضية: وهى نشاط عقلى يسعى للاستنباط بناءً على بديهيات ومسلمات منطقية.

أخذت العلوم الرياضية تزحف نحو العلوم الطبيعية وتدخل فى فروضها، وتساعد على الشرح والاستقراء للظواهر الطبيعية بصورة أفضل، ومنها الحساب والجبر وحساب المثلثات والتفاضل والتكامل والإحصاء الرياضى . . . وغيرها.

(ج) العلوم الإنسانية : وغايتها الفهم والتفسير للأحداث والدوافع بغرض تنظيم وترشيد السلوك الإنسانى :

الدوافع الإنسانية ليست سطحية أو بسيطة كما فى عالم الحيوان المحكوم بالغرائز والفعل ورد الفعل الانعكاسى، بل هى مركبة وغامضة، الدوافع الإنسانية فيها طموحات وتأملات وذكريات، فيها إحساس بالذنب وزهو بالمقدرة، فيها ضمير يراقب، وإحساس بالألفة والرضا والاطمئنان، وفيها إحساس بالاغتراب والفراغ والخواء الداخلى، لذلك يمكن التعرف على هذه الدوافع بالاجتهاد فى البحث داخل الذات والتعايش والتعاطف، وأدواتها التصور والتخيل بجانب الإدراك الحسى، وغير وارد فى العلوم الإنسانية القوانين الصارمة والصيغ الرياضية الجامدة والتفسيرات الكلية النهائية.

العلوم الإنسانية تشمل : علوم الدين، واللغة، والفلسفة، والقانون، والاجتماع، والسياسة والاقتصاد. . . وهكذا.

(د) العلوم التكنولوجية : وهى العلوم التى تنظم وتطبق المعارف السابقة من طبيعية ورياضية، وإنسانية فى تحديد كيفية إنتاج منتجات جديدة فى صورة مواد وأدوات وآلات وماكينات وتركيبات ثابتة ومتنقلة بهدف تسهيل حياة الناس وحرية حركتهم وشتى مجالات الاستمتاع واللهو والرفاهية.

من ناحية أخرى دخل المفهوم التكنولوجى فى علوم الحياة والأحياء، وخاصة فى العقود الأخيرة تحت ما يسمى التكنولوچيا الحيوية، وأمكن التدخل فى البناء الوراثى لبعض الأحياء، أو استنساخه معمليًا، أو التعديل بالزيادة أو بالنقص، أو التركيب فى الشفرة الوراثية، أو الچينوم للكائن الحى.

وقد بدا واضحًا أن تطبيق المعارف العلمية وانطلاقها إلى أهداف اقتصادية بلا قيود من قيم سامية، وأخلاق كريمة مستمدة من عقائد دينية ومعارف إنسانية، ليست فى صالح الإنسانية. أصبحت وما زالت نتائج التكنولوچيا الحديثة سواء فى عالم الأدوات والآلات، للحاجة أو بدون حاجة حقيقية، تحت تأثير وسائل الإعلام التى تحاول إقناع الناس بأهميتها واحتياجهم لها وربطها بالتميز والحداثة، أو فى عالم الأحياء وتأثيراتها

على الحياة الإنسانية، ومعرفة جوانب الخير والشر فيها، ومازالت تلك النتائج تحت التأمل والدراسة والبحث.

والتفكير العقلى للإنسان على العموم يدور حول محاور محددة؛ إما يبحث فى منشأ الأشياء (ومنها البشر) ومصيرها، ويسند ذلك بقدراته التخيلية إلى القوى فوق الطبيعية، ويحاول أن يشخص هذه القوى فيراها فى الأنهار، أو النجوم، أو فى الخالق الأعظم «الله» أو «الرب». وقد يدور التفكير العقلى حول محور الطبيعة كما يحسها الإنسان بحواسه ويدركها بعقله، يحاول أن يتعرف على ماهية الأشياء وتركيبها ووظائفها، ومدى نفعها أو ضررها فى حياته اليومية، وكل نوع من هذين الاتجاهين فى التفكير يبدأ بأحدهما وينتهى بالآخر.

ويلاحظ أن الشرقيين على العموم يركزون على منشأ الأشياء، ومنها الإنسان نفسه، ويهتمون بمصيرها، وبطبيعة الحال - ونتيجة لحدود بناء المخ فى الإنسان - يعجزون عن تحقيق ذلك بالإدراك الحسى فيستعيضون عنه بالتخيل والتصور فيما وراء الطبيعة.. ولكون هذه الأمور صعبة ومعقدة وخارج مقدرة العقل فيصدقها الإنسان بالإيمان بدون الحاجة إلى برهان أو دليل مادى حسى.

أما الغربيون فقد اهتموا بمعرفة الطبيعة وتركيبها، واستنباط قوانين عملها، وأقاموا البراهين على معرفتهم بآليات الإدراك الحسى.

لقد نشط الفكر الدينى فى الشرق حيث ظهرت الديانات والعقائد، وانتقلت منه إلى الغرب الذى وجد فيها ما يساعده على التوازن النفسى أمام قسوة الطبيعة وصعوبة العيش وعنف الصراع بين سكانه، وقام أهل الغرب بتعديل مسارهم الدينى أكثر من مرة بواسطة المنطق العقلى وإطلاق العنان للفكر الإنسانى متحرراً من كل القيود التى وضعها وبالغ فيها رجال الدين، فى الأغلب بدافع الحفاظ على استقرار الأحوال واستمرار مميزاتهم الدنيوية. وخلال القرون القليلة الأخيرة من عمر الإنسانية، حقق العقل الغربى إنجازات غير مسبوقة فى مختلف فروع العلوم الطبيعية الأساسية، منها والتطبيقية، فتم معرفة الكثير عن المادة وتركيبها، والفيزياء وفروعها، وعلم الحياة وتصنيف الأحياء، واكتسب الإنسان معرفة أعمق وأشمل عن الجسم البشرى وكيفية

أدائه لوظائفه، وأمكن تطبيق العديد من هذه المعارف العلمية عن الطبيعة بما فيها الإنسان لتسهيل الحياة، واقتصاد الطاقة ومحاولة علاج عيوب بدنه وأمراضه، وزيادة إمكانية صنع الآلات والمعدات بوفرة هائلة. كل هذا تم فى أقل من خمسمائة عام، وهى فترة قصيرة بالمقارنة للتاريخ الطبيعى والثقافى «للإنسان العاقل» الذى بدأ يعى نفسه والكون حوله منذ ما يقرب من خمسين ألف سنة، وبدأ فى اكتساب طعام من صنع يده منذ حوالى عشرة آلاف سنة (أى أن طفرة التقدم العلمى الطبيعى والتكنولوجى فى الغرب تم فى ١/ ١٠٠ من التاريخ البيولوجى للإنسان العاقل و١/ ٢٠ من التاريخ الثقافى تقريبًا) .

أما إنسان الشرق المشغول «بعظائم الأمور» وعنده من اليقين بقربه من الخالق ما يجعله مطمئنًا، فلم يجار هذا الفكر المحموم لمعرفة الطبيعة فى الغرب. وأعتقد أن ذلك ليس لعجزه الثقافى أو قصوراً فى بناء فكره التخيلى الإدراكى، بل قد تكون هناك أسباب أخرى، منها على سبيل المثال :

- هل بسبب تميز الشرقى للمعنوى فوق المادى ؟
- هل سمواً فوق الغرائز والحاجات الدنيوية ؟
- هل تكاسلاً وإحجامًا عن العمل المنتج للأدوات وعدم العمل نحو اقتصاد الطاقة المبذولة فى العمل؟
- هل بسبب حسن النية والجهل بمدى عنف وقسوة الآخر؟
- هل نتيجة لعدم الفهم الصحيح لروح عقائدهم الداعية للعمل الصالح والعدل فى توزيع نتاج هذا العمل والتراحم والتعاون فيما فيه خير الدنيا والآخرة؟
- هل بسبب تقديس الحاكم كالإله وابن الإله وظل الإله أو خليفة الرسول الذى اصطفاه الإله ؟ وعلى ذلك فمعارف الرعية مرتبطة بتوجيه ووعى و معارف الراعى ومساعديه؟!

الشرقيون وضعوا العقيدة الدينية محور تفكيرهم الأول، واستخدموا طاقاتهم العقلية التخيلية التصويرية فى إنتاج آداب من شعر ونثر، وكذلك فلسفات. وقام العقل الشرقى أيضًا تحت مظلة الثقافة العربية الإسلامية، فى فترات كثيرة وعلى مدى قرون

سابقة، بدراسة واستيعاب المعارف السابقة عن الطبيعة، وقام بتنظيمها وترتيبها والإضافة المعنوية الكاشفة، إليها فى فروع عديدة ومتنوعة، بل أضاف فروع علم جديدة مما جعلها أساسًا متينًا وهيكلاً صلبًا، وحينما تعرف عليه الغرب، انطلق فى البناء عليه فى القرون القليلة الأخيرة، وزاد تمركز فكره حول الطبيعة وأنتجوا من المعارف ما ساعدهم فى حياتهم اليومية، وعندما أحس الغربيون بقوتهم المادية، بدءوا فى التحرر من الالتزام الدينى «الأرثوذوكسى»، والانطلاق للسيطرة والسيادة.

تشير الوقائع التاريخية بوضوح إلى أن إنسان الشرق وجد نفسه فى القرون القليلة الأخيرة أمام معارف ونظم وجيوش وأساطيل آتية من الغرب تستغله، بل تحتله وتسحقه كلما أبدى اعتراضًا

وبدأ أخيرًا فلاسفة الغرب فى التأكيد على قيمة الإدراك الحسى، وأن الإنسان جزء من الطبيعة فى مادته ويلتزم بقوانينها إلى حد بعيد فى سلوكه. أما نحن فى الشرق فمازلنا نؤمن بازدواجية جوهر الإنسان، ففيه جانب بيولوچى طبيعى، وجانب روحانى مقدس من الخالق الأعظم الذى عنده المعرفة المطلقة.

أين التقدم والتخلف فى كل هذا؟!

أعتقد أنه ليس هناك عذر مقبول لاستمرار الشرقيين فى تخلفهم الحالى عن الغربيين فى مجالات العلوم الطبيعية والتكنولوچية الحديثة، فهم أسبق لمعرفة أصولها ويقدرون على استيعاب الجديد منها والتفوق فيه. وهناك بوادر تغير واضحة فى أقصى الشرق (اليابان والصين) تشهد بذلك. أما استيعاب الغربيين لفكر الشرقيين وقيمهم وفلسفاتهم فأصعب ويتطلب وقتًا أطول.

أعتقد أن الطريق الأضمن للتوازن العالمى بين البشر وتكامل مقدراتهم وثقافاتهم، هو تقدم الشرقيين للإمساك بزمام العلوم الطبيعية والتكنولوچية (إذا تمكنوا من ذلك) لأنه أقرب للتحقق فى رأيى من فهم الغربيين لآمال وطموح الشرقيين.

الاقتصاد والسياسة

إذا كان الاقتصاد هو التعامل مع الثروات الطبيعية الموجودة فى البيئة المحيطة حتى

يتمكن الإنسان من الحصول على أعلى عائد مادى مع بذل أقل جهد، فإن السياسة هى إدارة النشاط الإنسانى، وتنظيم حركة الأفراد والمجتمع حتى يحقق احتياجاته. لذلك يربط الأكاديميون السياسة بالاقتصاد غالبًا.

هناك عوامل خمسة أساسية لتكوين العقل الجماعى للمجتمعات الإنسانية، هى اللغة، الدين، المعارف، الاقتصاد والسياسة. وهذه موضوعات شغلت الإنسان منذ آلاف السنين، وتم تسجيل الخبرات والمعارف وتوثيقها فى صور، ومخطوطات، ووثائق وكتب، وعلى القارئ المهتم أن يرجع إلى المصادر المعتبرة فى كل فرع من فروع هذه المعارف، ولكن ما نقصده هنا هو محاولة توضيح الروابط والعلاقات بين هذه الموضوعات ومدى تأثير أحدها على الآخر كمدخل للفهم المستنير لموضوع التقدم والتأخر من جوانبه المختلفة.

من المعروف أن نسبة مشاركة كل عامل من هذه العوامل فى بناء العقل الجماعى تتباين من زمن إلى آخر فى المجتمع الواحد، ومن مجتمع إلى آخر فى الزمن الواحد، ولكل من هذه العوامل صوره المتعددة وأدواته وآلياته التى تحقق دوره فى البناء، وقد سبقت الإشارة إلى دور اللغة والدين والعلم فيما سبق.

حاولت السياسة، ومنذ البداية، استغلال القوى الغيبية لما وراء الطبيعة لتعزيز دور الحاكم، وتثبيت أركان حكمه فى صورة قبيلة، أو إمارة، أو مملكة، أو جمهورية. . . إلخ، وذلك بالاستعانة ببعض الأفراد ذوى الكفاءات الخاصة من السحرة والكهنة ورجال الدين، وأخيراً الخبراء والمستشارين. كذلك أعد الحكام فى سبيل ذلك مجموعة من أفراد المجتمع لحمايتهم، وتنفيذ ما يطلب منهم مقابل تهيئة الطعام والملبس والمسكن لهم. وحتى يمكن توفير احتياجات القوة المنفذة لإرادة الحاكم، تشارك أفراد الرعية فى نتاج عملهم بوسائل مختلفة، منها القسر، والجباية، والضرائب. . وغير ذلك. من هنا دخل الاقتصاد كعنصر أساسى فى إدارة وقيادة المجتمعات، وتباينت حقوق الأفراد داخل المجتمعات بين الاستعباد والملكية إلى سيادة طبقة على أخرى ثم محاولة المساواة، والتكافل بين الأفراد.

مع تطور نشاط الأفراد لتوفير احتياجاتهم وأسرهم اليومية، ومع زيادة أعداد

المجتمعات وتنوع احتياجاتهم وانطلاق تطلعاتهم، تطورت نظمهم الاقتصادية من العبودية إلى الإقطاع إلى الرأسمالية إلى الاشتراكية . . . وغير ذلك .

ومن آليات إدارة المجتمعات، التحكم المطلق للحاكم حسب رؤيته ونصائح أسرته والمحيطين به، إلى مشاركة الجميع فى إدارة شئونهم ـ وإن صعب ذلك ـ ويكون القرار لأغلبيةالأفراد، وهناك الأسلوب الوسط بأن يكون القرار للحاكم، ولكن بعد مشاورة أفراد مجتمعه ومعرفة وجهات نظرهم فى الأمر، وكل من هذه الآليات لها متطلباتها، وعلى سبيل المثال مشاركة الجميع فى اتخاذ القرار يتطلب التنظيم والاهتمام والتفكير فى الأمر المعروض بواسطة كل فرد فى المجتمع سواء كان هذا الأمر يمس حياته شخصيًا بشكل مباشر أو يمس قطاعات أخرى من المجتمع . أما الشورى واستنارة الحاكم برأى ذوى الحل والعقد فى الموضوع، فهذا النظام يتطلب توفر الحاكم العالم الحكيم الذى يستطيع أن يتبين الصالح فيما يرى، ويسمع، ويجمع، وينقى خلاصته ويطبق الخير للجميع . وكما هو واضح فإن كلا الطريقين صعب، فالأول يتطلب أفرادًا يتمتعون بالإيجابية والفهم والإيثار، والثانى يتطلب حاكمًا ملهمًا مصطفى بقوة عليا .

ارتبط تطور النشاط الاقتصادى فى المجتمعات الإنسانية بزيادة المعارف والعلوم وتراكم الخبرات، وخاصة فى القرون الأخيرة، مما حدا بالحكام للنظر فى موضوع المعارف والعلوم نظرة فاحصة :

- هل تشجيع زيادة المعارف والعلوم بين رعيتهم فى صالح تثبيت دعائم حكمهم واستقرار إدارتهم وزيادة ثروتهم ؟

- هل زيادة المعارف تؤدى إلى إضاءة العقول وتنوير الشعوب وليس فقط زيادة دخلهم، مما قد يدفع الناس للحفاظ على هذا الدخل والتدقيق فى محاسبة الحكام فيما يحصلون عليه منهم، وذلك مع أبسط الفروض ؟

لا شك أن الاقتراب من معرفة خصائص الطبيعة وتحديد بعض قوانين عملها وتطوير تلك المعارف لاستخدامها فى تسهيل حياة الناس، كان من العوامل الرئيسية للتنبيه لفائدة العلوم من الناحية الاقتصادية، وعلى سبيل المثال استخدام البخاروظاهرة تحويل السوائل إلى غازات وما يصاحبها من توليد طاقة أمكن تحويلها إلى قوة

ميكانيكية، واستبدالها بالطاقة الحيوية للإنسان والحيوان، كان مثالاً واضحًا، ومنذ قرون، لإمكان الاستفادة من المعارف العلمية كمصدر مهم من مصادر الرخاء المادى.

وعلى العموم فإدارة شئون الناس وتنمية قدراتهم على الإنتاج المفيد وتوزيعه بعدالة كانت دائمًا من أحلام البشر المستعصية على التنفيذ على مر التاريخ. لأنه بجانب الرغبة فى عمل الخير والقناعة والإيثار، كانت هناك دائمًا الشراهة، والطمع، والتعصب، والأنانية وحب الذات كصفات للنفس الإنسانية. فإذا تم تنشيط هذه الصفات السلبية فى نفوس الحكام أو المحيطين بهم، دفعتهم إلى الاستئثار لأنفسهم وأسرهم والأقرباء منهم بمعظم الفائدة والثروات والإنجازات التى تحققها الرعية، أوالتى تمتلكها الشعوب الأخرى الأقل كفاءة فى الدفاع عن نفسها وممتلكاتها عن طريق الغزو والاحتلال تحت مختلف المسميات.

وأعتقد أنه من المؤشرات الرئيسية للتقدم السياسي في المجتمعات هو قيام الحكام بتشجيع البحث العلمي وتخصيص نسبة ملائمة من الدخل القومي للإنفاق على تحصيل المعارف والعلوم دون النظر للعائد الاقتصادي المباشر في زمن الإنفاق.

لكن يبقى السؤال: من يقوم باختيار النشاط العلمى المفيد فى مجتمع ما؟ ومن يقوم بمتابعة التنفيذ والالتزام بانضباطه، ومتابعة مايتم بعين فاحصة حسب الأصول الموضوعية المطلوبة ؟ ومن يقوم بتصنيف المنتج العلمى وفرزه لاستخراج ما يمكن أن يكون ذا فائدة مباشرة فى حياة الناس ؟

خلال القرن الأخير، تم التركيز على تقيم ثقافات الشعوب ومدى تقدمها أو تأخرها عن طريق الدخل المادى والمستوى الاقتصادى، وأصبح السائد أن الشعوب الفقيرة متخلفة والشعوب الغنية متقدمة، وعلى ذلك يمكن تبسيط الأمر وحساب درجة التقدم والتأخر بحساب الدخل القومى السنوى لمجموعة أو أمة أو دولة وقسمته على عدد أفراد هذه الدولة، وبناء على مستوى الدخل السنوى للفرد دون أى اعتبار للتفاوت بين دخول الأفراد، ومهما كان واسعًا، يمكن تصنيف الدولة ومرحلة تقدمها.

على الرغم من أنه يمكن التسليم بأن المستوى الاقتصادى لمجتمع ما يعتمد على عدة عوامل، أهمها الثروة الطبيعية، والثروة البشرية وقدراتها المعرفية على التعامل مع هذه

الثروة، واستخراجها وتصنيعها وتوزيعها، وأن ذلك لايمكن أن يتم بصورة فاعلة إلا من خلال لغة تواصل سليمة، وعلم وافر، وتكنولوچيا متعددة المنتجات؛ أى أن يكون هناك تميز فى عناصر ثقافية أخرى متعددة حتى يمكن أن يكون دخل الفرد عاليًا ويحقق الرفاهية الاقتصادية.

لكن من الخطأ التركيز على الجانب الاقتصادى، والاكتفاء بتحقيق الاحتياجات الحيوية للإنسان من طعام وملبس ومسكن ووسائل انتقال... إلخ، وغض الطرف عن الجانب الروحى الذى يحدد الأهداف والغايات، ويضع القواعد والوسائل، ويفى بالاحتياجات المعنوية والنفسية من رخاء وسعادة واطمئنان للنفس.

* * *

الباب الخامس

مصر والعروبة والتقدم

- من المصرى
- إذن من هم العرب بيولوچيا؟
- رابطة اللغة
- رابطة الدين
- نحن والغرب

لقد التزمت فيما سبق بالنظرة العلمية لرصد الظواهر والتعرف على أسبابها بموضوعية وحيادية من الناحية المعرفية (الأبستمولوجية) كما يراها المتخصصون الأكاديميون، بدون تبرير لاتجاه أو استحسان لتفسير من جهة أو إظهار شرور التوجهات وعيوبها من جهة أخرى؛ ذلك لأن هدف العلم فى النهاية هو عرض المعارف المحايدة.

لكننا إذا نظرنا إلى ما يجرى فى عالمنا المعاصر، سنجد أن هناك شعوبًا فى أوروبا الغربية وأمريكا تبسط سيادتها وهيمنتها على معظم شعوب العالم، وأمة عربية تكاد تقع تحت السيطرة الكاملة للغرب، وخاصة فى المجالات العلمية والتكنولوچية والعسكرية، وتكاد تفقد خصوصيتها الثقافية والفكرية، اللهم إلا بعض ردود الأفعال التى تدفعها إلى إشكالات تاريخية هامشية، وتبعدنا عن حقائق دنيانا المعاصرة، بينما هناك شعوب شرقية فى آسيا آخذة فى النهوض والإمساك بزمام أمرها بتصميم وفاعلية، ويبقى كثير من المهمشين فى الجنوب يقاسون العزلة والإهمال والركود.

أين نحن من كل هذا على ضوء ماسبق عرضه؟.

مـن المصـرى؟

يعيش الإنسان المعاصر على كوكب الأرض منتميًا إلى وطن، والوطن اليوم ليس مساحة من سطح الأرض فقط، ولكن له حدوده الإدارية وطبيعته الجغرافية، ويشارك فيه بشر وأحياء أخرى من نبات وحيوان، وبه ثروات طبيعية، كما أنه مر بأحداث تاريخية وله قيمته النسبية التى يحددها على الأرجح الإنسان أكرم المخلوقات، وماذا يفعل مع هذا الوطن ومكوناته.

وفيما سبق ذكره، فالإنسان كائن حى متميز له أصول ومواصفات بيولوچية خاصة تجمعه فى نوع معين من الكائنات يسميه علماء الأحياء «الإنسان العاقل». وهذا العقل المميز للإنسان هو الذى أتاح له إنتاج ثقافة فى صورة علوم وآداب، وفنون، وصناعة وزراعة وقيم وعادات. . . وغيرها مما سبق تفصيله.

أما عن الأصول والمواصفات البيولوچية الخاصة بالإنسان، فتحددها أساسًا الشفرة الوراثية الخاصة لفرد معين، وهى وظيفة ما يسمى بـ «الچينوم» الذاتى لهذا الفرد، والذى يتكون بتصرف محدود فى أثناء عملية الإخصاب من اندماج المادة الوراثية الموجودة فى نطفة الأب مع المادة الوراثية الموجودة فى نطفة الأم.

هذا الچينوم الذاتى للفرد يحدد سماته المتفردة والمميزة ويعكس صفات الوالدين وأسلافهما، وأيضًا يعكس مواصفات المجموعة البشرية أو العرق الذى ينتمى إليه هذا السلف فمن يُولد فى أسرة زنجية يتصف بالسمات التى تميز «الزنوج» عامة، ومن يُولد لأسرة إسكندناڤية يتصف بالسمات العامة التى تميز «القوقازيين النورديك» ومركزيًا يحدد هذا الچينوم الذاتى كون الفرد بشرًا وليس حصانًا أو طائرًا.

وتوضح الدراسات الحديثة، بناء على علوم البيولوچيا الجزيئية وتحليل المادة الچينية، أن الاختلافات بين البشر طفيفة جدًا، ومعظمها توجد بين الأفراد داخل المجموعة أو العرق الواحد (راجع الباب الأول).

إذا عاشت مجموعة من البشر فى ظروف طبيعية ومناخية وبيئية ثابتة، وبمعزل عن الآخرين لأجيال عديدة، تتزايد هذا السمات الخاصة التى تميزها بوضوح عن مجموعة أخرى عاشت فى بيئة أخرى أيضًا لأجيال عديدة، مثلاً (الزنوج الذين يعيشون فى المناطق الحارة فى إفريقيا والنورديك الذين يعيشون فى المناطق الباردة فى شمال أوروبا) يمكن تمييزهم عن بعض بسهولة ووضوح.

ولكن ما يجمع البشر، بكونهم بشرًا هو كثير جدًا، وعميق جدًا، ومؤثر جدًا فى كونهم ينتمون لنوع واحد، مشتركين فى تاريخ الحياة وأهداف الوجود.

وبناء على ذلك، فالمصرى هو إنسان ينتسب إلى وطن هو مصر، وتُبنى هذه المواطنة على أسس وشروط قانونية وإدارية إذا استوفاها الفرد قبله المجتمع مصريًا، وليس من بين هذه الشروط مواصفات بيولوچية عرقية كطول القامة ولون الجلد أو العينين. . .

وغير ذلك من المواصفات البيولوچية (راجع قانون الجنسية والتجنس).

واتفاق المجتمع على هذه الشروط كان نتيجة التطور البيولوچى لسكان هذه المنطقة ومميزاتها وتاريخها.

إذا نظرنا إلى هذه المجموعة البشرية التى تعيش على تلك الرقعة من الأرض الآن، والتى تسمى مصر، نجد أنهم على طول التاريخ المعروف لم يكونوا أبداً بمعزل عن غيرهم من سكان المعمورة، بل إنه حتى منذ فترة ما قبل التاريخ، فإن حفريات العظام فى منطقة البدارى جنوب مصر بها العديد من المواصفات للأعراق الإفريقية فى الجنوب، أما الحفريات الأخرى التى وُجدت فى منطقة حلوان والشرقية تبين العديد من المواصفات للأعراق القوقازية من الشمال والشرق.

الكثير منا يعلم أن مصر، على مدى التاريخ المعروف ومنذ توحيد الملك نارمر للقطرين الشمالى والجنوبى، كانت مصباً للأعراق من جميع الاتجاهات، فالوعاء الوراثى لهذه المنطقة غنى بالعديد من المورثات (الچينات) التى انتشرت وزحفت إليه من جميع الأرجاء. فى التاريخ القديم تعرضت مصر لقدوم وغزو قبائل من وسط آسيا من الشرق وأقاموا بها وحكموها أكثر من قرن من الزمان (الهكسوس التى يسجل التاريخ قيام الفرعون أحمس بنزع الحكم منهم)، وبقيت چيناتهم فى هذا الوعاء، ثم تعرضت مصر لغزو من الشرق أيضًا بواسطة الفرس والأشوريين، ثم من الجنوب (المملكة النوبية) ثم من الغرب (الليبيين)، وفى أواخر فترة مصر الفرعونية قدم لها الأغريق من الشمال بقيادة الإسكندر الأكبر، والذى ترك فيها أسرة من العسكريين حكمت مصر لمدة ثلاثة قرون تقريبًا، كما جاءت قبائل من شعوب مجاورة إلى مصر للتجارة والاستيطان فى قديم الزمان.

ماذا يعنى هذا بيولوچيًا؟ يعنى أن هناك چينات ومورثات أُنتُخبت فى بيئات أخرى غير المنطقة الجغرافية المسماة مصر، وانتقلت تلك المورثات إلى الوعاء الوراثى لمصر وتم اختلاطها بما هو موجود أصلاً من چينات ومواصفات (عن طريق التزاوج)، وبدرجات متفاوته حسب طبيعة العلاقات الاجتماعية وقتها. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تبع الأغريق الرومان الذين سيطروا على مناطق أوروبا، بل وعلى أجزاء من آسيا وإفريقيا.

وتبعتهم الدولة البيزنطية وانتشرت معها مورثات إثنية من الشمال، إلى أن تم الفتح العربى الإسلامى ومعه أتى الكثير من الجينات المنتجة فى الجزيرة العربية وما حولها. كان من طبيعة الحكم العربى أن يكون هناك خليفة أو أمير للمؤمنين يسكن عاصمة الخلافة ويُنصِّب واليًا لحكم «مصر الولاية» ولم يكن مشترطًا أن يكون هذا الوالى من الجزيرة العربية أو من مصر، بل كان غالبًا من أحد أجزاء الخلافة المنتشرة على رقعة واسعة من العالم المعمور وقتها، من آسيا وأوروبا وإفريقيا، وكان يُعتقد أن أكثرهم ولاء وشجاعة هم من مجتمعات شمال وشرق تركيا، وبعضهم من شبه جزيرة البلقان ومناطق غرب ووسط آسيا وأحيانًا من إفريقيا، واستمر الأمر كذلك مع نزوح العديد من المماليك والجوارى من تلك الأجزاء، واستمر ذلك حتى بعد فتح السلطان التركى سليم الأول لمصر فى أوائل القرن السادس عشر وحتى بداية القرن التاسع عشر، والتى كانت مصر، حينها، إداريًا تابعة للإمبراطورية العثمانية تبعية صورية، ثم أتت الحملة الفرنسية، واستولت على مصر لسنوات قليلة، ثم استولى محمد على وأسرته على حكم مصر؛ ثم احتلت بريطانيا مصر إلى أن انتهت الإمبراطورية العثمانية مع نهاية الحرب العالمية الأولى فى أوائل القرن العشرين (راجع تاريخ مصر الحديثة).

معنى هذا بيولوجيا أن الوعاء الوراثى للوطن مصر يحتوى على العديد من المورثات لكثير من المجموعات البشرية، والتى تم انتخابها فى بيئات آسيوية وأوروبية وإفريقية متنوعة اختلطت على مدى آلاف السنين، وكونت هذا الشعب المعاصر الكامن فى أفراده معظم سمات النوع البشرى مع اختلاف عناصره وأعراقه وفروعه، ويحب الآخر ويحترمه ولايكاد يعرف التعصب للعرق.

إذن من هم العرب بيولوجيًا؟

يكاد المؤرخون يتفقون مع علماء علم الإنسان وعلم اللغات على أن العرب هم مجموعة السكان الأصليين لشبه الجزيرة العربية، ويقسمهم المؤرخون إلى عرب بائدة؛ وهم الذين بادوا وانقطعت أخبارهم ولا يُعرف عنهم غير ما ورد فى الكتب السماوية والشعر العربى القديم مثل عاد وثمود، وعرب باقية.

أما العرب الباقية فيما نعرف فينقسمون إلى قسمين:

(أ) عرب عاربة : أى الصرحاء الخلص الذين ينتسبون إلى قبيلتى «يَعْرُب» و«جُرْهُم» من شعب «قحطان» وموطنهم الأصلى بلاد اليمن فى الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية، حيث تكثر الأمطار والزروع. ومن قبيلة يعرب تشعب فرعان كبيران هما «كَهْلاَن» و«حمير» ومن أشهر بطون كهلان قبائل «همدان»، «كِنْدَة»، «أنمار» و«لخم»، من أشهر بطون حمير قبيلة «قُضَاعة»، ومن قضاعة، تفرَعت قبائل «جهينة» و«كلب» و «بنو نهد»، و«جريم».

(ب) عرب مستعربة : ويطلق على جمهور العرب من البدو والحضر من سكان الحجاز وحتى بادية الشام، ويقال أن الأصل فى هذه التسمية بالعرب المستعربة أو المتعربة يعود إلى قبيلة «جرهم» من شعب «قحطان» نزحوا بعد انهيار سد مأرب فى اليمن إلى منطقة مكة فى حوالى القرن السابع قبل الميلاد حيث كان هناك بعض الزراعات حول الآبار.

وكانت هناك قبائل عربية أخرى نزحت منذ ما قبل التاريخ إلى وادى الرافدين وبادية الشام ومصر حيث تيسرت لهم سبل العيش فى أحواض الأنهار، وعند السواحل البحرية واندمجت تلك القبائل، ثقافياً وتزاوجت بيولوجيًا مع السكان الأسبقين لتلك المناطق.

ويرى المؤرخون أن بلاد العرب قبل الإسلام لم تعرف الحكومة المركزية، كما كان فى مصر مثلاً، وإنما قامت فيها وحدات سياسية مستقلة على أسس قبلية، تفاوت تنظيمها تبعًا لاتساع نفوذها.

فى الجنوب الغربى فى بلاد اليمن قامت عدة ممالك ذات حضارة بعضها عميق التاريخ واتصلت بإفريقيا فى الغرب ومنطقة القرن الإفريقى حيث إن الأصول اللغوية فى تلك المناطق سامية مشابهة للغة العربية، وكانت هناك حركة للسكان بين بلاد «بونت» - الصومال الحالية - ومصر الفرعونية وأيضًا منذ فترة ما قبل التاريخ (وجدت مؤخراً بعض الحفائر فى اليمن يرجع تاريخها للألف الثانية قبل الميلاد، ويقال إن طرق الدفن فى تلك الحفائر مماثل لما كان بمصر قبل عصر الأسرات - دفن القرفصاء)، من أشهر تلك الممالك مملكة «معين»، مملكة «قتبان»، مملكة «سبأ»، ومملكة «حمير».

فى شمال شبه الجزيرة العربية، استوطنت بعض القبائل العربية وكونت دويلات شبه مستقلة فى الأراضى القريبة من الدولتين الكبيرتين؛ دولة الفرس ودولة الروم، ومن هذه الدويلات «مملكة الأنباط» وكان أهلها يتكلمون لغة عربية شمالية ويكتبون بالخط الآرامى النبطى، وهو الخط الذى استخدمه أهل قريش فى تدوين لغة القرآن الكريم، ومملكة «تدمر» وقد تم ضمهم إلى مملكة الروم فى نهاية القرن الأول الميلادى تقريبًا، ثم مملكة «غسان» وتشمل الأراضى الواقعة شرق نهر العاصى والأردن، ومملكة «الحيرة» التى أسسها المناذرة فى القرن الثالث الميلادى فى أراضى الحيرة بالقرب من بابل، وكان أهلها على علاقة متينة بالفرس، واشتهروا بتعليم القراءة والكتابة.

أما فى وسط الجزيرة العربية، فلم يكن هناك فى تلك الفترة سوى بعض الكيانات القوية فى مكة ويثرب التى لم تتعرض لغزو أوفتح خارجى باستثناء الحملة الفاشلة لأبرهة الحبشى، لكن سكان هذه المناطق سافروا وتنقلوا شمالاً وجنوبًا سعيًا وراء الرزق والتجارة.

هذا يعنى أن المواصفات الفيزيقية لأهل الجزيرة العربية انتقلت منذ فترة ما قبل التاريخ إلى الغرب فى مصر والقرن الإفريقى، واختلطت المورثات من الوافدين والسكان الأسبقين وكذلك مع سكان الشمال فى منطقة ما بين النهرين وحتى سواحل البحر المتوسط، ومع الفتح الإسلامى زادت حركة سكان الجزيرة العربية والمسلمين الآخرين من شعوب أخرى واتسعت آفاقها لتمتد من جنوب أوروبا شمالاً وغربًا إلى إلى حدود الصين شرقًا، ولم يمثل الإسلام كدين جديد عائقاً للاختلاط البيولوچى والتزاوج، بل شجع على ذلك على أساس أن الناس سواسية بيولوچيًا ومقياس التفاضل بينهم هو درجة التقوى.

إذن، بيولوچيًا الوعاء الجينى للمصريين يضم العديد من المواصفات الأوروبية والأسيوية والإفريقية، كما يضم الچينات التى تم انتخابها فى الجزيرة العربية، والمناطق المحيطة بها ومنذ فترة ما قبل التاريخ المعروف، ولا يمكن اعتبار المصريين أصحاب نمط وراثى مميز، بل يمتازون بالثراء الچينى، وبهم معظم السمات الإنسانية الفيزيقية. كما أن سكان الجزيرة العربية الحاليين يضمون كثيراً من السمات الچينية للعديد من الأعراق، ولو بدرجة أقل من المصريين، ويمكن أن يكون هناك بعض القبائل المنعزلة لفترات زمنية طويلة تم التزاوج بين أفرادها داخليًا ولهم سمات وراثية مميزة.

أما من ناحية الثقافة، فيرتبط المصريون المعاصرون بالعرب والعروبة، وبأكثر العناصر الثقافية الفاعلة مثل اللغة والدين.

رابطة اللغة

اللغة المصرية القديمة هي لغة سامية مثل اللغة العربية والعبرية وإن كان بها تأثيرات حامية، أو كما يقول علماء اللغة: فهى فرع من اللغات الإفريقية الآسيوية، وإن وُجدت فيها تغيرات وتحورات على مدى التاريخ الفرعونى من تأثير الهجرات العديدة لشعوب قدمت من الجنوب ومن آسيا ومن أوروپا أتوا بلغة تواصلهم، حتى إن اللغة القبطية، والتى بدأ استخدامها فى مصر مع نهاية القرن الثانى قبل الميلاد - فهى لغة مصرية قديمة - بها الكثير من الكلمات المنطوقة والحروف المكتوبة من اللغة اليونانية القديمة. الروابط بين أصول اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واضحة فى بناء الجمل واستخدام الفعل فى أول الجملة وليس الاسم كما فى لغات أخرى بأن نقول «قرأ أحمد الخطاب» ولا نقول «أحمد قرأ الخطاب»، وكذلك الاسم إما مذكر، وإما مؤنث، ولا يوجد الاسم المحايد، وعادة الكلمة المؤنثة يتم بناؤها بإضافة حرف أو أكثر للمذكر. وكذلك وجود المثنى فى كلتا اللغتين، فلا يقتصر الأمر على المفرد والجمع.

وتختلف المصرية القديمة فى علاقتها باللغة العربية عن اللغة الفارسية أو التركية، فالفارسية هى فرع من اللغات الهندوأوروپية من أصول جنوب شرق أوروپية، والتركية من أصول آسيوية تشترك مع مجموعة اللغات الألطية الممتدة من منغوليا شرقًا وجنوب سيبيريا إلى شرق أوروپا.

لذلك تمسكت مصر ولاتزال باللغة العربية حديثًا وكتابة منذ أوائل القرن الثامن الميلادى وكان ذلك سهلاً، وتمكنت اللغة من أهل مصر ليس فقط لأنها لغة القرآن والدين الجديد، ولكن لأسباب لغوية محضة كما هو موضح عاليه، بعكس الفرس والأتراك الذين سهل عليهم العودة، إلى تسجيل ثقافتهم بلغاتهم الأصلية الفارسية والتركية، وإن ظلوا متمسكين بالإسلام دينًا لهم.

وكما سبق ذكره، فاللغة ليست فقط وسيلة تعبير، ولكنها فى الأصل آلية تفكير يتميز بها الإنسان العاقل لتنقل ما يدور فى عقل الفرد من أفكار إلى آخر فى صورة محسوسة - مسموعة

أو مقروءة. فالاشتراك في اللغة يعنى سهولة التواصل مع التماثل فى طريقة التفكير، وصياغة النشاط المعرفى للعقل، وهذا بالتأكيد يساعد المجتمعات على الإنجاز وتحقيق الهدف.

رابطة الدين

أما عن الدين، فالمصريون القدماء هم من أوائل الشعوب التى اعتقدت فى وجود الروح منفصلاً عن الجسد، واعتقدوا أيضًا فى وجود حياة أخرى بعد الموت، وهذه المعتقدات من أركان الديانات السماوية الثلاث، وتقبلت العقلية المصرية الدين الإسلامى بسهولة كما تقبلت قبله الدين المسيحى والدين اليهودى، فهم أول من نادى بوحدانية الخالق الأعظم، ووجدوا فى الدين الإسلامى وسطية تجمع بين متطلبات الديانتين السابقتين ـ المادية فى اليهودية والروحانية فى المسيحية ـ ويعكس خبرتهم السابقة بأن: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا.

والدين كما سبق ذكره من العناصر الثقافية الفاعلة فى فكر وسلوك البشر ويشكل القيم الأخلاقية فى المجتمع والمرتبطة بالعقيدة كما يحدد السلوك والعادات، والتقاليد المرتبطة بالعادات، والمعاملات، والعلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

.مما سبق نرى أن المصرى المعاصر كما تحدد هويته القوانين والقواعد الإدارية يجمع كثيرًا من السمات البيولوجية للشعوب المحيطة، ومنهم العرب بطبيعة الحال، وثقافيًا فهو يشترك مع العرب فى اللغة والدين وكثير من القيم والتقاليد، وإن كانت العروبة رابطة أوسع من المواطنة (مع ضرورة الاحتفاظ بها والإخلاص لها كضرورة أولية)، وتضم مجموعات متشابهة فى بعض إن لم تكن معظم الجوانب وذات إمكانات بشرية ومادية أكثر تنوعًا وثراء، فيكون افتعال التناقض على أسس نفسية سلبية ـ كالأنانية والطمع والرغبة فى السيادة. . . وغيرها ـ هو عمل من لا يريدون التقدم والقوة لشعوب منطقتنا من العالم.

نحن والغرب

تقوم الولايات المتحدة الأمريكية، ومنذ منتصف القرن العشرين، ببناء

إمبراطوريتها وإحكام سيطرتها على العالم رغبة فى ممارسة قوتها المتراكمة الهائلة، ونشر ما يسمى بالسلام المسيحى، وادعاء تنوير الشعوب بالمعارف الحديثة وتحريرها من طغيان «حكامهم المستبدين» عن طريق نشر ما يسمى بالديمقراطية الغربية، ولهم فى سبيل ذلك السيطرة على مصادر الطاقة وتقوية موقفها التنافسى مع قوى أخرى محتملة الظهور، ولأطول مدة ممكنة، وقد يتم هذا بدفع خفى من اللوبى اليهودى الذى يريد أن تقوى «إسرائيل» المستعمرة الاستيطانية تمهيداً - فيما أعتقد - لتصفية حسابهم فى المستقبل مع الكراهية والتعصب الأوروبى نحو اليهود المقيمين بينهم على مدى قرون من جهة، ولسيطرة الغرب على منطقة الشرق الأوسط وإعادة تشكيلها على أسس جديدة أساسها ما يسمى اعتدال دولها وتوافق شعوبها مع الرؤية الأمريكية لعالم اليوم من جهة أخرى.

إن هذه الرؤى الأمريكية، والغربية على العموم، لها جذور تاريخية وثقافية ونفسية عميقة، وليست جذوراً علمية مجردة أو عقلانية منطقية خالصة، فالعلم والعلماء لا يقودون الشعوب ولا يوجهون سياسات الحكومات إلا بقدر محدود ومتفاوت بين الدول.

فى بعض الأحيان يكون العلماء خاضعين لميول حكامهم؛ تلك الميول التى تشكلها عوامل نفسية عميقة. بل إن حكومات الولايات المتحدة لجأت فى العقود الأخيرة إلى إنشاء مؤسسات علمية تغدق عليها المال للقيام ببحوث «علمية» موجهة لأهداف مسبقة، وخاصة فى مجالات العلوم السياسية والاقتصادية بغرض تأييد توجهاتها وتبرير سلوكها، وتعطى الشرعية والمرجعية الأخلاقية لسياساتها فى العالم. وبكل أسف هناك من المفكرين من قَبِلَ العمل تحت مظلة هذه المؤسسات وبرروا هذا لأنفسهم بأعذار متعددة أمثال «روستو»(*) فى الستينيات و«هنتنجتون»(**) فى تسعينيات القرن العشرين. وعلى ذلك يتطلب الأمر نظرة بانورامية لما يجرى.

(*) أحد الأساتذة الذى عمل مستشاراً للأمن القومى الأمريكى، وكان كل همه إيجاد أسباب أخرى غير الاستعمار سبباً فى تخلف دول العالم الثالث، وقطع طريق معونتهم من الدول ذات النظام الاشتراكى فى ذلك الحين.

(**) أحد الأساتذة الدارسين الذى قدم للمجتمع الأمريكى فكرة تصادم الحضارات، ووضع الإسلام على رأس أعداء الحضارة الغربية، وقد قام فى بداية حياته العملية بالدعوة إلى العنف والحرب فى فيتنام؛ لأن فى ذلك الوسيلة الناجعة فى رأيه لوقف المد الاشتراكى فى العالم.

تقول الأساطير اليونانية القديمة إنه كان هناك ملك لدويلة صور الفينيقية له ثلاث بنات غير شقيقات؛ إحداهن تدعى «أوروبا» وهى أجملهن، قام إلههم زيوس باختطافها وأنجب منها ذرية عاشت فى المنطقة التى سميت على اسمها «أوروبا» والأختان الأخريان هما «آسيا» التى بقيت فى الشرق و«ليبيا» التى رحلت إلى الجنوب، وكلتاهما أنجبتا ذرية عاشت فى المنطقة التى سميت على اسم أمهم «آسيا وليبيا».

ويلاحظ هنا التشابه مع ما أتى فى الكتب المقدسة عن سكان المعمورة فى الزمن القديم، وأنهم ينحدرون من أبناء النبى «نوح» بعد الطوفان العظيم، وهما «يافث» فى الغرب و«سام» فى الشرق، و«حام» فى الجنوب، وأن ذرية يافث ستحكم ديار أبناء سام وحام، ولاحظ أن النسب عند الإغريق كان للأم وعند الشرقيين أصحاب الديانات السماوية كان للأب (انظر الباب الأول).

فى اليونان القديمة حاول فلاسفة الإغريق توصيف سكان مناطق العالم المعمورة.

وينسب إلى أرسطو (الفيلسوف الإغريقى الأشهر) أنه قسم البشر إلى سكان المناطق شرق أثينا وآخرين غربها، وقام بتوصيف الشرقيين بأنهم أقل حركة ونشاطًا، ولكنهم أكثر ذكاءً من الغربيين، وأرجع ذلك إلى اختلاف المناخ (البرد فى الغرب والحر فى الشرق)، وكان أساس التقسيم هو حركة الشمس وموقع أثينا، ولكنه فيما يبدو لم يبرز فروقًا بدنية، وقد يكون ذلك لأن الفرس الشرقيين، أعداء الروم القدامى التقليديين، كانوا يشبهون الروم بدنيًا وفيزيقيًا، حيث إن أصولهم قبائل أوروبية تحركت شرقًا من المنطقة الواقعة بين نهر الدانوب ومرتفعات أوكرانيا، واستقروا فى منطقة بلاد فارس وشمال غرب الهند منذ مايقرب من خمسة آلاف عام قبل ميلاد السيد المسيح.

أما عبد الرحمن بن خلدون فى كتابه «العبر...» مع نهاية القرن الرابع عشر الميلادى، فقد قام بتقسيم العالم المعمور وسكانه حينئذ إلى أهل الشمال وأهل الجنوب، وذكر الفروق البدنية بين الصقالبة أهل الشمال، حيث البرد والثلوج، فهم بيض الجلود، ملونو العيون والشعر، وبين أهل الجنوب، حيث الحر، فهم سود الجلود، ومناطق الوسط وهى أعدلهم مناخًا، فسكانها وسط بين السواد والبياض.

كان لآراء أرسطو سلطة معرفية قوية فى أوروبا بعد عصر النهضة، تلك الآراء والمعارف التى وصلت لمفكرى أوروبا عن طرق متعددة، وأهمها كتابات القس توماس الأكوينى، والذى تعلم على يد ابن رشد الفيلسوف المسلم، والشارح الأعظم لفكر أرسطو(*).

كما انتقلت آراء ابن خلدون لأوروبا، وأُعتُبر بواسطة بعضهم هناك بأنه مؤسس لعلم الاجتماع.

وأصبحت العقلية الغربية ترى فى الإنسان الشرقى والجنوبى شيئًا واحداً (الآخر اللاغربى)، وألبسته نمطًا خاصًا معينًا من البشر يجمع بين صفات بدنية (عرقية) ووظيفية (نفسية سلوكية) مميزة عن الإنسان الغربى، والذى اعتبروه أيضًا نمطًا خاصًا متميزاً بمواصفات خاصة.

لقد تأثر المفكرون الأوروبيون بتلك الآراء السابقة حتى إن الفيلسوف الفرنسى الشهير «مونتسكيو» أضاف مثل غيره أن أبناء «يافث» الأوروبيين يسعون دائمًا للحركة والاجتهاد فى العمل ولا يقبلون الطغيان، أما الآخرون فى آسيا وإفريقيا فيميلون إلى الاستكانة وقبول العبودية والخنوع لاستبداد حكامهم، وضرب المثل على ذلك بطغيان حكام الإمبراطورية العثمانية ونعتها بكل سلبى وقبيح، وهناك من المفكرين الغربيين من ينتقد هذه الآراء ويقول إن مفكراً فى حجم مونتسكيو الذى قدم أحد أعظم الأعمال الفكرية عن القانون والحكم «روح القوانين» لا يمكن أن يغض الطرف عن طغيان أمراء الإقطاع فى أوروبا ويركز على عيوب الحكم فى الإمبراطورية العثمانية، وأن معظم آرائه عن الاستبداد التركى ما هو إلا إسقاط لآرائه فى أمراء الإقطاع الأوروبيين(**).

(*) رأى ابن رشد فى فكر أرسطو غائية مشابهة لغائية الأديان السماوية، فكل شىء وكل حركة لغاية وليست مصادفة أو عشوائية.

(**) لم تعرف معظم دول أوروبا الديمقراطية المعاصرة إلا فى القرن العشرين. . . إسپانيا والبرتغال فى الثلث الأخير منه، وفرنسا والنمسا وألمانيا وإيطاليا بعد الحرب العالمية الثانية، وفى الواقع لم تصبح كل من ألمانيا وإيطاليا دولة إلا فى نهاية القرن التاسع عشر، أما إنجلترا، والتى تزخر كتب التاريخ التقليدية بقدم الديمقراطية فيها، فقد قاست فى القرن التاسع عشر من كافة الأمراض الاجتماعية، وتنضح روايات شارلز ديكنز وغيره بذلك.

وترجع هيمنة غرب أوروبا على العالم - فى جزء كبير - إلى سبقها فى تكنولوچيا السلاح، واستيلائها على مناجم ذهب وفضة أمريكا، مع استباحة الآخر.

إن هناك بين أسلافه من المفكرين الأوروبيين من يمدحون الأتراك العثمانيين، ويرون فيهم كثيراً من الصفات الإيجابية والمميزات التى تفوقوا بها عن الأوروبيين، وذلك فى أثناء قوة الأتراك وانتصاراتهم واتساع إمبراطوريتهم فى أجزاء أوروبا المتاخمة لها وهذا من صفات العقل الأوروبى (الإعجاب بالمنتصر).

كان التصور البازغ فى عقول المفكرين الأوروبيين ابتداءً من القرن الثامن عشر حتى اليوم، إن الحضارة الأوروبية (الغربية) هى حضارة لها جوهر خاص فريد ومختلف جوهريًا عن الثقافات الأخرى بنيت على استمرار وتماسك عبر القرون، وقد ولدت فى أثينا القديمة وبعثت من جديد مع عصر النهضة(بعد عصور الظلام) منذ القرن السادس عشر، وأصبحوا يعتقدون الآن بنبل وسمو هذه الحضارة الغربية مقارنة بغيرها من الحضارات.

يُلاحظ أن الدارس الغربى الأمريكى للأوضاع الاجتماعية فيما يسمونه الشرق الأوسط، وطموحات شعوبه وتطلعهم إلى الحرية والمعرفة والتقدم، يلجأ إلى تصور نمط ثابت غير متغير لسكانه، نواته الدين الإسلامى ويقوم بتسميته كنوع خاص من البشر (Homo-Islamicus)، ويبدأ فى وصف سمات هذا النوع وتقييمها منطلقًا من مفهوم أن الإنسان الغربى (والمجتمع الأوروبى الأمريكى) هو النمط المعيارى الذى يقيس عليه التشابه والاختلاف، فكل تشابه هو علامة تقدم، وكل اختلاف هو علامة تخلف، ولا يستطيعون النظر لنوعية الخلاف بأنه قد يكون أنسب وأحسن لهذه المجتمعات بحجة أنها تفتقر لعناصر نفسية واجتماعية ضرورية للتقدم (هكذا!).

وما دام أن الإنجاز التكنولوجى المعاصر المبنى على معارف علمية قد تم بصورة رئيسية فى الغرب خلال القرون الثلاثة الماضية، فإن وصفهم للآخر يكون من منطلق الشعور العميق بالتفوق والحق فى السيادة والهيمنة (فيما يسمى بالعقلية المركزية الأوروبية)(*). وظل هذا الفكر مسيطراً على عقلية الكثير من الدارسين من ذوى القامات العالية، والتأثير المعنوى فى الفكر الغربى عامة، أمثال كارل ماركس وماكس ڤيبر وهاميلتون جيب وغيرهم.

(*) وهى تسمية رقيقة لطيفة للأنوية الأوروبية.

أصبح الفكر السائد فى الغرب اليوم، بين المفكرين والجماهير على السواء، بأنهم سادة العالم الحديث ثقافيًا واقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا، وهم القوة القائدة فى تاريخ العالم، ونقلوا الهوة العظيمة بينهم وبين أسلافهم فى القرون الوسطى (من القرن الثالث إلى القرن الحادى عشر الميلادى) إلى هوة سحيقة بينهم وبين الآخر، وخصوصًا العربى المسلم، والذين قد يعتبرونه بدائيًا وأن الطريق الوحيد للتقدم هو تقليد الغرب فى كل أفكاره وسلوكه.

يقولون تبريرًا لذلك أن العقلية الغربية لها مميزات تختلف عن العقلية العربية الإسلامية، وعلى سبيل المثال:

الغربى نشط مجتهد يميل إلى الحرية ويدافع عنها بروحه، ويميل إلى العقلانية، بل يؤمن بها وبأن المعرفة العلمية التى يسعى دائمًا لها لا يمكن أن تنبع إلا من عقل الإنسان وحده، وعلى ذلك يعطى أهمية خاصة للتطوير التكنولوچى والاقتصادى، ويقولون أيضًا إن عند الغربى ما يكفى من الفضول الفكرى ليبحث ويحاول معرفة الطبيعة وقوانينها مما أدى للتفوق العلمى الكاسح للعالم الأوروبى الأمريكى، والذى استعمله بما يمتلكه من روح الاختراع إلى التقدم التكنولوچى الفائق، والتقدير العميق لعنصر الزمن والاهتمام بقياسه وإدخاله فى أعماله وتعاملاته مما دفع التقدم التكنولوچى بشدة إلى الأمام.

ويتعرض بعض الدارسين فى الغرب إلى دراسة العقل العربى الإسلامى وطبيعة عمليات التفكير عنده، فقالوا إن الشرقى عمومًا يركن للكسل والتواكل ويميل إلى العبودية، ولا يثور على الاستبداد والفوضى، ويميل إلى معرفة مجمل الأحداث والأشياء ومعرفة الصور الكلية والاتجاه العام، ولا يميل إلى دراسة التفاصيل والدقة فى رصدها وترتيب معارفه، وعلى ذلك لا يقدر على ربط الأحداث، ويفتقر إلى الشعور بالقانون والنظام ويكره التفكير العقلانى، وأخلاق المنفعة المرتبطين ببعضهما ارتباطًا لا ينفصل، ويقولون عندما حاول واجتهد بعض المفكرين المسلمين منذ ما يقرب من ألف عام ـ المعتزلة وإخوان الصفا ـ اللجوء إلى العقلانية المنطقية تحت تأثير الفكر الإغريقى، رفض «اللاهوتيون» المسلمون هذه الاجتهادات التى انزوت فى ركن تاريخ تلك الحضارة. . . وقالوا إن العقل الشرقى شغل نفسه بعظائم الأمور؛ أصل الإنسان ومصيره ـ من أين أتى وما مقره بعد الوفاة، وهى مسائل معقدة تفوق قدرة

العقل الإنسانى على حلها، ولذلك انجذب العقل الشرقى عمومًا نحو «العالم غير المرئى».

هذا ويضيفون بأن تمتع الأوروبى بروح المغامرة دفعه إلى أن جاب البحار والمحيطات مع بداية القرن السادس عشر، واكتشف العالم الجديد؛ «ثلاث قارات كبارًا والعديد من الجزر» - وتعرف على طبيعتها وثرواتها وسكانها، وقام بجعلها عمارًا (الاستعمار) بعد أن كانت خرابًا. هذا باختصار هو الإطار الفكرى لادعاء التفوق الغربى والتقدم على سائر الشعوب، والذى تم تأسيسه على الآتى:

١ - اختلاف الصفات البيولوچية وإضفاء الشرعية على استعباد الآخرين من الأفارقة والهنود الحمر والأسيويين؛ لأنهم أدنى درجة أو درجات فى الإنسانية. وقد ثبت علميًا خطأ هذا التوجه، وأن الفروق البيولوچية تساعد على معرفة خصائص الشعوب وتصنيفها، ولكن ليس لها أى مردود ثقافى أو فكرى، واستخدامها للتميز بين الناس تجاوز وتعصب فاضح للذات «انظر الباب الثالث»، وأن العنف والقسوة والحيلة كانت وسائلهم فى استغلال الآخر واستعباده، وإذا لزم استئصاله كما حدث فى أمريكا وإفريقيا وأستراليا لتجميع الثروة لهم.

٢ - كثيرًا ما أثار المستشرقون الغربيون حال المرأة الشرقية، ورأوها عبدة لأطماع الرجل وشهواته، ذلك المستبد الطاغية فى بيته مفرط الشبق، ويستخدم المرأة لإشباع هذا الشبق فقط، ولا يعتبرها إنسانًا مساويًا له فى الحرية والسيادة، وذلك كتعويض مما يذوقونه هم من حكامهم من استبداد وشراهة . . . إن ضرورة نشر العدالة تدفعهم إلى استعمار تلك الشعوب وتدريبها على المساواة بين الجنسين، وفى ذلك تأكيد لتفوقهم الأخلاقى!

٣ - ورد فى التوراة تميز أبناء يافث ورضا الله عنهم، فهم الأحق بحكم العالم وتناسوا أن كل شعب يفخربنفسه، وتراثه وعقائده بل إن القرآن يقول للمسلمين ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وتلك الآراء فيها الفهم كما فيها سوء الفهم، فيها التشويه وفيها الحياد، فيها إظهار بعض العيوب وتركيز الضوء عليها وتضخيمها، وفيها أيضًا الإخفاء والتعتيم على كثير

من المميزات والإضافات المعنوية للإنسانية، فيها الإسقاط الشخصى وفيها الموضوعية، فيها النقل المحايد، كما فيها من الإثارة والغريب الشاذ من وضع خيالهم وسلبيات خلقهم.

وما كانت هذه النظرة لتقوم لولا وضعهم غطاء كثيفًا من الأنانية والتعصب وحب الهيمنة على الآخر. وضع هذا الغطاء على أبصارهم وبصيرتهم، فلا يرون ولا يتذكرون كيف تشكلت الثقافة اليونانية القديمة وأثر الحضارة المصرية الفرعونية فيها، وكيف تعلم معظم فلاسفة الإغريق القدماء على أيدى المصريين فى معابدهم لسنوات طوال، وما تأثير ثقافة الفرس والشرق عمومًا فى إمداد الإغريق بالمعارف والخبرات، نعم لقد استوعب مفكرو الإغريق القدماء تلك المعارف العملية من مصر والشرق عمومًا، وقاموا بإعمال العقل فيها وتنظيرها، لكن هذا لايدعو إلى تجاهل الأصول وحقائق التاريخ الإنسانى.

أيضًا تم التعتيم التدريجى على دور الثقافة العربية الإسلامية كدافع ومحرك لعصر النهضة الأوروبية، وإن كان مفكرو القرن الثالث عشر - السادس عشر قد ذكروا مصادر معارفهم عن علماء العرب المسلمين، ولكن بدون فهم صحيح أو عميق لمحتوى هذه المعارف، وعندما استوعبوا محتواها الفكرى والإضافة إليه بدءوا فى عدم ذكر المصادر (هذه صفة أخرى من صفات العقل الغربى: تجاهل فضل الآخر إن أمكن).

من العناصر المميزة للسمو الإنسانى هو الضمير؛ ذلك الرقيب الداخلى القابع فى أعماق العقل، يدفع الإنسان إلى عمل الخير ومنعه من عمل الشر، هذا الرقيب غير المرئى مرتبط بالجانب الروحانى من إنسانية الإنسان التى يؤمن بها المسلم، وفى ذلك يختلف عن فكر الفلاسفة الغربيين المعاصرين الذين يصدقون الرقيب المرئى من الخارج؛ أى القانون الوضعى، والذى يحدد لهم ما الشر وما الخير، وإذا اختفى هذا الرقيب الخارجى يكون كل شىء مباحًا؛ ولذلك تركز إدارة تلك المجتمعات الغربية على القانون، وتجعل احترامه وسيادته على الجميع هو العمود الفقرى الذى بُنيت عليه حضارتها الحديثة. وأعتقد اعتقادًا كاملاً أن ذلك أساسى ومطلوب فى كل المجتمعات؛ شرقية وغربية، إسلامية وغير إسلامية لضبط حركة المجتمعات والترتيب

لتحسين حال معيشتهم، ولكن أعتقد أيضًا أنه إذا أُضيف الضمير، ذلك الرقيب الداخلى، وكان فاعلاً فى النفس الإنسانية، فتكون قوة التنظيم مضاعفة وصفاء النفس سائدة، ولا يصح أن تكون تربية الضمير بديلاً عن احترام القانون، أو دليلاً على الانجذاب نحو غير المرئى ومدخلاً للتخلف الإنسانى كما يدعى بعض مفكرى الغرب.

إن هناك مرحلة من النضج تصل إليها بعض المجتمعات الإنسانية تستطيع عندها أن تحدد مصالحها واحتياجاتها، ثم تخطط وتعمل على تحقيق هذه الاحتياجات على أحسن ما يكون بأقل جهد وطاقة مبذولة وفى أقل وقت ممكن. ونظرة إلى تاريخ الإنسان تجعلنا نرى أن هذه المرحلة من النضج نسبية حسب ظروف العالم فى وقتها فكونت بعض الشعوب إمبراطوريات مسيطرة كالفرس، والروم قديمًا، والعرب والمغول فى العصور الوسيطة والأوروبين حديثًا.

يرى المفكر والفيلسوف الألمانى هيجل أن التاريخ الإنسانى ما هو إلا تتابع للحضارات، فتُولد حضارة وتنمو حتى النضوج وتسلم الراية لحضارة أخرى، وتبدأ هى فى الانزواء والهرم، لتبدأ الحضارة الجديدة نفس المشوار، وقد ظهرت حضارات فى الشرق فى مصر وآسيا، وقدمت للإنسانية فكرة التوحيد (ولم يذكرطرق الزراعة والنحت والبناء وحروف الهجاء والرياضيات ... وغيرها) كما قامت الحضارة العربية الإسلامية بحفظ التراث اليونانى والرومانى (حسب رأيه)، وقدموه لأوروبا لتبنى الحضارة الحديثة مستفيدة من كل التجارب الإنسانية السابقة.

يعتقد المؤرخ الإنجليزى الشهير توينبى، والذى تتبع إحدى وعشرين حضارة على مدى التاريخ الإنسانى المعروف، أن انهيار حضارة ما واضمحلالها النهائى يكون بسبب عدم استجابتها للتحديات الأخلاقية التى تجابهها! (هل يمكن اعتبار ذلك دليلاً على قرب انهيار الحضارة الأمريكية المعاصرة؟! فالحروب الأمريكية المباشرة وغير المباشرة، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، كلها مبنية على أكاذيب الرسميين وقيام إدارة الدولة بتخويف وإرهاب الشعب الأمريكى بقسوة مما سيلقاه على أيدى الآخرين الحاقدين، وإذا لم يقوموا بتلك الحروب، فهى فى النهاية دفاع عن ممتلكاتهم ودمائهم -

ولكن الشعب الأمريكي يكتشف سريعًا التلفيق والتضليل فى تلك الادعاءات من حكامهم كما حدث فى ڤيتنام والعراق(*) . . . وغيره.

بدأت الحضارة الإسلامية فى الصعود بدءًا من القرن الثامن الميلادى، واستمرت فى الصعود والازدهار حتى القرن الحادى عشر، ثم توقف الصعود وأخذت القابلية للإبداع واستيعاب الجديد الإبداعى الإيجابى تقل تدريجيًا (حتى لو ظهر فى بيئات أخرى وبين شعوب أخرى)، وشكل العثمانيون مع بداية القرن الخامس عشر حركة انتعاش للحضارة الإسلامية، ولكن بمفهوم تركى وتوجهوا للقوة العسكرية والتوسع الإقليمى، وأغفلوا أو لم يوفقوا فى مجاراة الفكر الأوروبى الناهض، وعجزوا عن الاستفادة بالإنجازات الفكرية والعلمية والصناعية فى أوروبا خلال عصور التنوير والعقل (من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين) وانزلق المجتمع الإسلامى على العموم إلى الركود الثقافى وسوء الإدارة.

ولكنى أعتقد أن الحضارة الإسلامية لم تصل إلى قمتها بعد؛ لأن جوهرها الحقيقى لا يظهر ويفيض لخير الإنسانية إلا إذا كفلت الاحتياجات المادية لأفرادها، عن طريق المعارف والعلوم الحديثة وتطبيقاتها التكنولوچية المتطورة.

وأعتقد أن الجوهر الفريد والروح الخاصة بالعقيدة الإسلامية تتركز فى قيم العدل والإحسان والتراحم. العدل الحق لا يتحقق إلا بحرية الفرد، وانطلاق فكره، وعواطفه بشرط ألا يجور على فكر وعواطف الآخرين، والمساواة بين الأفراد فى كل الحقوق والواجبات، وتكافؤ الفرص فى العمل، فيقوم كل فرد فى أداء ما يجب وما يتناسب مع مواهبه، وإمكاناته مع عدالة فى توزيع نتاج العمل بين المواطنين فيكون لكل فرد نصيب عادل من ثروة بلده طبقًا لجهده وإمكاناته بلا ظلم.

(*) زعم الرئيس الأمريكى بوش وإدارته امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، فقام بغزوه مع الدول الحليفة والتابعة والطامعة، ثم تبين كذب الرئيس، فتغير سبب الغزو إلى علاقة العراق بهجمات ٩/١١، وتبين زيف الزعم الثانى، فتغير إلى علاقة صدام بالقاعدة، ثم تبين لثالث مرة زيف الزعم الثالث، وكل ذلك على مسمع ومرأى العالم كله . . . فإذا بالرئيس الأمريكى يحول السبب إلى أن الغزو لنشر الديمقراطية فى العراق والشرق الأوسط . . . وبالطبع لا يصدق أحد ذلك . . فلم يخجل الرئيس أن يحول مهمة الغزو إلى حماية حلفائه فى الشرق الأوسط من الخطر الإيرانى، وبمثل هذه الأكاذيب، واستباحة الآخر، هيمن الغرب، بعد سبقه فى تكنولوچيا السلاح، واستيلائه على فضة وذهب أمريكا.

أما الإحسان فهو الإخلاص فى العمل وتجويده وأن يعطى الإنسان كل ما يستطيع من جهد؛ لأن الخالق يراه فيتقن هذا العمل ويحبه الخالق، كما أن الإحسان هو عطاء مباشر من الجهد والمال لمن يحتاج ويستحق.

التراحم ونشر المودة بين الناس، والأقربون أولى بالمعروف، والتفضيل هنا للترتيب وليس للتخصيص، أى أن التراحم وإيتاء ذوى القربى ليس فى الأسرة البيولوجية فقط ولكن بين البشر أجمعين، فإن لم نكن أخوة بالمورثات فنحن أخوة فى الدين وفى الإنسانية، بل من المحمود أن تكون المودة مع جميع المخلوقات التى تشارك الإنسان الحياة من حيوان ونبات.

يهمنا فى العالم المعاصر أن نلقى نظرة فاحصة على ما يجرى، ووضعنا فيه كمصريين وعرب، وتقييم درجة تقدمنا وتخلفنا بمقاييسه كخطوة أولى.

لقد وجد الأوروبيون أهدافهم ومصالحهم بعد عصر النهضة فى التحرر من سيطرة كهنوت الكنيسة المسيحية، ثم فى الاكتشافات الجغرافية ومسح الكرة الأرضية، ثم فى دراسة الطبيعة ومعرفة قوانينها، ثم فى دراسة البشر المشاركين لهم الكرة الأرضية ومعرفة مواصفاتهم الجسدية وثقافاتهم، وقيمهم وعاداتهم؛ كل ذلك لتحقيق هدفين: الأول هو الاكتفاء الغذائى والاقتصادى، والثانى هو حماية ما يحصلون عليه من ثروة عن طريق تنظيم وتطوير وسائل القوة، وفى ذلك تحقيق لاحتياجاتهم النفسية من سيادة وهيمنة على الآخرين، بل إن دراساتهم للثقافة العربية الإسلامية، والتى تم بناؤها على دين جديد، وفكر جديد مع معارف السابقين فى الشرق والغرب، أنتجت من المعارف والعلوم ما كان هو الهيكل الصلب الذى ارتكزت عليه وأتاحت لهم تكملة البناء بوسائل جديدة كما سبق تفصيله.

لقد هاجر كثير من الأوروبيين إلى العالم الجديد - أمريكا الشمالية والجنوبية وأستراليا - يجذبهم حلم الثراء وجمع الذهب والفضة، ويدفعهم التمرد على القديم وقيوده على أمل الحرية والانطلاق ويحملون معهم تراث الإنسانية من معارف وعلوم وفنون، وإكسير التقدم المبنى على معرفة الطبيعة وقوانينها، والعمل على استغلال هذه المعارف فى صناعة وزراعة وبناء، وساعدتهم دولهم فى أول الأمر، بل أرسلت

جيوشها من إنجلترا، وفرنسا، وهولندا، وإسبانيا، والبرتغال لاحتلال تلك الأرض وإخضاع ساكنيها، وإن لم يقبلوا مشاركة وسيادة الوافد الجديد، أجبروهم على هذه المشاركة بالقوة والقهر، والإبادة أحيانًا.

واستطاع السكان الجدد للعالم الجديد تكوين مجتمعات مترابطة استطاعت فى نهاية المطاف التمرد على دولها الأصلية، وتكوين دول جديدة «مستقلة»، استطاعت إحدى هذه الدول أن تبنى إمبراطوريتها، وتتحكم فى العالم مع بداية القرن الواحد والعشرين الحالى، وهى الولايات المتحدة الأمريكية.

ولنضرب مثلاً واضحًا لوسائل التضليل التى تستخدمها الإدارات الأمريكية لإعاقة التقدم فى منطقتنا العربية.

يدعى الفكر الأمريكى فى كتاباته الجارية «أن النظم القومية في مصر وسوريا فى النصف الثانى من القرن العشرين انتهجت سياسة عقيمة، فبدلاً من أن تقوم ببناء عالم عربى متحد وتدفعه نحو الاستقلالية الاقتصادية وتنميته ودفعه نحو التصنيع الحديث، دخلت فى مواجهات طائشة مع الغرب وإسرائيل نتج عنها هزيمة مهينة لجيوشها ونزعت المصداقية عن ناصر ونظامه الذى مات فجأة».

أما الحقائق الموثقة فهى:

١ ـ حاربت الولايات المتحدة والغرب الوحدة العربية ـ بالسياسة المعروفة: فرق تسد ـ بوضع الأسافين بين الحكام العرب، وخصوصًا بين مصر والسعودية.

٢ ـ إعاقة النمو الصناعى والاقتصادى فى مصر بالحصار، وترهيب الخبراء الأجانب وسحب تمويل السد العالى، وزرع بذور الشك فى قدرة المصريين على عمل شىء مفيد (زادت هذه النبرة أخيراً بالتركيز على الآثار الجانبية للمشروع، وخاصة بين الشباب، رغم أنه أنقذ مصر من الفيضانات وفترات الجفاف).

٣ ـ التخطيط الحثيث لكشف الأخطاء، وعدم مهنية العسكريين المصريين فى تلك الفترة وجرهم إلى مواجهة لا يريدونها مع الجيش الإسرائيلى المدعم معلوماتيًا، وخططيًا، وتسليحًا من الغرب مما أدى لهزيمة ١٩٦٧.

٤ ـ لم يمت ناصر فجأة ولكن بعد هذه الهزيمة وتداعياتها من خلافات بين العرب.

لقد كان حكام الغرب فى أوائل القرن العشرين يعتقدون أن سيطرتهم على شعوب الشرق الأوسط وشمال إفريقيا والهند وغيرها سيطرة أبدية، وأن استعمارهم لتلك الأجزاء استعمار خالد، مثله مثل استعمار إخوانهم للعالم الجديد فى الأمريكتين وأستراليا، ونظراً لغرور القوة لم يفطنوا للفروق الجوهرية بين سكان المنطقتين من العالم (منطقة العالم الجديد ومنطقة الشرق الأوسط) تاريخيًا وحضاريًا، فما كادت منطقة الشرق الأوسط تتحرك مع منتصف القرن العشرين حتى تحركت باقى الأجزاء فى إفريقيا، وآسيا، وأمريكا اللاتينية، بل زادت حركات المطالبة بالحقوق المدنية للأفارقة الأمريكيين فى الولايات المتحدة ذاتها، وكل ذلك شكل عقبات حقيقية أمام طموحات الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية فى السيطرة على العالم وإحلال إمبراطوريتها محل إمبراطوريات «أوروبا القديمة».

بل إنى أعتقد أن بناء الإمبراطورية الأمريكية الحديثة صار سهلاً بعد موت عبد الناصر فى عام ١٩٧٠ م وهناك العديد من الدلائل على ذلك!

لقد شهدت نهاية القرن العشرين انتكاسة قاسية للقيم الإنسانية التى تعارف عليها البشر قبل هذا التاريخ، حين كان الهدف لحياة الإنسان هو تنميتها وتطوير المجتمعات الإنسانية بمحاربة الأعداء الثلاثة ـ الفقر، والجهل، والمرض ـ ولكن فجأة انكشف الغطاء عن التقدم الأوروبى الأمريكى بصورة لم يسبق لها مثيل، وأصبح واضحًا للجميع أن هذا التقدم ما كان يمكن أن يتم دون استعباد الآخرين واستغلال طاقاتهم واستنزاف ثرواتهم، وأن ذلك السلوك كان عنصراً رئيسيًا فى بناء وقوة العالم الغربى المسيطر، وبدلاً من أن يساعدوا الفقراء حتى يتغلبوا على الإملاق، زادوهم فقراً (إن لم يكن مطلقاً فنسبيًا، حيث زادت الفروق بين الأغنياء والفقراء على مستوى الطبقات داخل الدول وعلى مستوى العالم أيضاً)، وبدلاً من تعليم «الجهلاء» والمساعدة على تحسين وضعهم المعرفى، يمنعونهم من العمل لزيادة معارفهم (انظر ماذا يفعلون مع إيران) بحجة أن هؤلاء «الجهلاء» سيسيئون استخدام العلم والتكنولوجيا إذا تملكوها، وذلك ليس فى صالح المجتمع الدولى والإنسانية! (لأنهم هم المجتمع الدولى وليس غيرهم، والطبيعة البشرية فى رأيهم ترتكز على الأنانية

والمنافسة بعكس عقيدتنا أن الإنسانية تعاون وإيثار). بل أصبحوا يستخدمون المرض كأحد وسائل الحرب والقتال، ويتم استزراع الميكروبات الفتاكة فى المعامل والمختبرات وإعدادها «ليوم المعركة».

لقد دفعت التطورات السياسية، والاقتصادية فى العقود الأخيرة إلى فتح الباب واسعاً أمام الدراسات الأكاديمية المستفيضة فى الغرب عن الاستعمار وفلسفته، وآثاره على الشعوب المستعمرة والمستعمِرة، ودوره فى بناء العالم بالصورة التى نراها مع بداية القرن الحادى والعشرين.

أما نحن فما وضعنا الحالى؟

يمكن للقارئ أن يحكم على وضعنا الحالى بالنظر إلى عناصر التقييم ومقاييس التقدم كل على حدة (انظر الباب الرابع)، فعليه أن ينظر إلى الإنسان المصرى، والعربى كفرد، وحالته الصحية بدنيًا، ونفسيًا. كما يجب النظر إليه كوحدة اجتماعية، وتقييم المجتمعات العربية من الناحية الصحية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية من لغة ومدى تمسكنا بلغتنا وسيلة تفكيرنا، ومدى تطويرها وتنميتها، ومدى فهمنا لروح ديننا الحنيف، وتطبيقنا لتعاليمه الجوهرية وقيمه الأخلاقية بعقول مفتوحة لاحتياجات التغيرات الاجتماعية والاقتصادية على مستوى العالم بدون خوف أو تردد، فديننا متين، وأيضًا النظر فى الأوضاع العلمية والتكنولوچية، وقياسها بمعايير السابقين لنا فى هذا المضمار من الأوروبيين، ولكن ليس بشروطهم وتطبيقاتهم لتلك المعارف.

آمل أن يكون هذا الكتاب وما قدمه من معارف وتحليلات مفيداً للقارئ العربى ودافعًا للمزيد من القراءة، والتعلم لمعرفة ما يجرى فى أوطاننا، وفى العالم من حولنا وإدراك مكاننا فيه على الوجه الصحيح.

* * *

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية

- أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٨٤٠- ٩٢٢ م): جامع البيان فى تأويل القرآن- الطبعة الثانية- مطبعة ومكتبة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة - ١٩٥٤ م.
- أبو الحسن على بن سهل بن ربن الطبرى (٧٨٠ م) : فردوس الحكمة - مطبعة أفتاب - برلين- ألمانيا - ١٩٢٨ م
- أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠-١٠٣٦ م): القانون فى الطب- ثلاثة أجزاء - مطبعة بولاق - القاهرة - ١٨٧٧ م
- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى (١٠٧٤- ١١٤٣ م): الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل- مطبعة ومكتبة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة ١٩٦٦ م.
- أندريه إيمار وجانين أبوايه.Avaya - : تاريخ الحضارات العام - فريد م- داغر وفؤاد ج. أبو ريحان (ترجمة)- المجلد الأول - منشورات عويدات - بيروت . (١٩٦٤)
- أندريه كريسون : ديكارت - نيسير شيخ الأرض(ترجمة)، دار بيروت للطباعة والنشر- بيروت - ١٩٥٦ م.
- أنيس منصور : الخالدون مائة وأعظمهم محمد ﷺ - الطبعة السابعة - الزهراء للإعلام العربى ١٩٩٨ م.
- برويز أمير على بهالى بود : الإسلام والعلم. الأصولية الدينية ومعركة العقلانية- محمود الخيال (ترجمة)- المشروع القومى للترجمة - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة -٢٠٠٥ م.
- بهاء طاهر : أبناء رفاعة - الثقافة والحرية - كتاب الهلال - دار الهلال- القاهرة ١٩٩٣ م.
- توماس كون: بنية الثورات العلمية - شوقى جلال- ترجمة - سلسلة عالم المعرفة رقم ١٦٨ - الكويت - ١٩٢٢ م.
- ثروت عكاشة: مذكراتى فى السياسة والثقافة- مكتبة مدبولى - القاهرة ١٩٨٨ م
- جان مارى بليت (بالفرنسية) : «عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة» - السيد محمد عثمان (ترجمة) : سلسلة عالم المعرفة رقم ١٨٩ المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - الكويت - سبتمبر ١٩٨٤.

* جراهام إى فوللر : جمع أيان أو . ليسر - الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة - شوقى جلال - مركز الأهرام للترجمة - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٧٧ م .
* جلال أمين : خرافة التقدم والتأخر - دار الشروق - القاهرة - ٢٠٠٥ م .
* جنيفر آكرمان : همس من الماضى - تاريخ طبيعى لعلم الوراثة - أحمد مستجير (ترجمة) - المشروع القومى للترجمة - العدد ٤١١ - المجلس الأعلى للثقافة - الطبعة الأولى ٢٠٠٢ م .
* جورج سارتون : تاريخ العلم [إبراهيم بيومى مدكور، محمد كامل حسين، قسطنطين رزيق، محمد مصطفى زياد - إشراف على الترجمة] - دار المعارف - القاهرة جـ١ ط ٤ (١٩٧٩م) - جـ٢ ط ٣ (١٩٧٨م) - جـ٣ (١٩٧٨م) .
* الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشى (١٣٠٠ - ١٣٧٢ م) : تفسير ابن كثير - مطبعة المنار - القاهرة - ١٩٢٨ م .
* حسن حامد عطية : خلق الإنسان بين العلم و القرآن - مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله - تونس - ١٩٨٧ م
* دماسيو، دماسيو : الدماغ واللغة - مجلة العلوم (الكويت) المجلد ١٠ العدد ٥ - ١٩٩٤ م .
* رجاء النقاش : عباقرة ومجاهدون - مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٩٠ م .
* ريتشارد نيكسون : ١٩٩٩ نصر بلا حرب - الطبعة الرابعة : مركز الأهرام للترجمة والنشر - ١٩٩٦ م .
* زكارى لوكمان : تاريخ الاستشراق وسياساته - الصراع على تفسير الشرق الأوسط . شريف يونس (ترجمة) - دار الشروق - القاهرة الطبعة الأولى - ٢٠٠٧ م .
* زكى نجيب محمود : عربى بين ثقافتين - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٠ م
______ : أفكار ومواقف : الطبعة الأولى - دار الشروق - بيروت والقاهرة ١٩٨٣ م .
______ : هذا العصر وثقافته - الطبعة الثانية - دار الشروق - بيروت والقاهرة ١٩٨٢ م .
* سليمان حزين : حضارة مصر - أرض الكنانة - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩١ م .
* عباس محمود العقاد : عبقرية عمر - نهضة مصر للطباعة والنشر - الطبعة العاشرة سنة ٢٠٠٦ .
______ : الإنسان فى القرآن - مطبعة نهضة مصر - القاهرة - ٢٠٠٣ م .
______ : الفلسفة القرآنية - كتاب الهلال - دار الهلال - القاهرة - ١٩٧٠ م .
* عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى : (١٣٣٠ - ١٤٠٦ م) - العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر - دار الكتاب اللبنانى - بيروت ١٩٨١ م .
* عبد الوهاب المسيرى : دراسات معرفية فى الحداثة الغربية - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة - ٢٠٠٦ م .

* علی بن العباس المجوسی: (٩٤٩ ـ ٩٨١ م) ـ كامل الصناعة (الملكی) ـ جزءان ـ مطبعة بولاق ـ القاهرة ـ ١٨٧٧ م.
* علی عبد العزيز النفيلی: مدخل إلى الأنثروبولوجيا البيولوجية ـ المركز العربی للوثائق والمطبوعات الصحية ـ أكمل ـ الكويت ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٧م.
* ـــــــــــ: دراسة عن نمو الأطفال فی التراث العلمی للحضارة الإسلامية طبع ونشر ـ أكاديمية البحث العلمی والتكنولوجيا ـ القاهرة ـ ٢٠٠٥م.
* علی علی حبيش: استيعاب التكنولوجيا وتحديات العصر ـ أكاديمية البحث العلمی والتكنولوجيا ـ مطابع روز اليوسف الجديدة ـ القاهرة ـ ١٩٩٢ م
* علاء الدين أبو الحسن علی بن حازم القرشی المشهور بابن النفيس: (١٢١٠ ـ ١٢٨٨م) ـ الموجز فی القانون ـ مخطوط رقم D578 قسم الوثائق والمخطوطات ـ الخزانة العامة بمدينة الرباط ـ المغرب.
* فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ والرجل الأخير End of History and The last man ـ حسين أحمد أمين: (ترجمة) ـ مركز الأهرام للترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٩٣ م.
* فؤاد زكريا: التفكير العلمی ـ الطبعة الثالثة ـ سلسلة كتب عالم المعرفة ـ الكويت ـ ١٩٨٨م.
* محمد أحمد الغمراوی: الإسلام فی عصر العلم ـ إعداد: أحمد عبد السلام الكردانی ـ أربعة كتب فی مجلد واحد ـ دار الإنسان (للتأليف والترجمة والنشر) ـ القاهرة . (١٩٧٣).
* محمد أركون: الفكر العربی ـ عادل العوا (ترجمة) ـ الطبعة الثالثة ـ دار منشورات عويدات ـ بيروت ـ باريس ١٩٨٥ م
* محمد عابد الجابری: الأبستمولوجيا والأيدلوجيا واستقلال التاريخ من ملفات الذاكرة ـ الكتاب التاسع عشر ـ الدار البيضاء ـ ٢٠٠٣ م
ـــــــــــ: مدخل إلى فلسفة العلوم ـ الجزء الأول: تطور الفكر الرياضی والعقلانية المعاصرة ـ الجزء الثانی: المنهاج التجريبی وتطور الفكر العلمی ـ دار النشر المغربية: الدار البيضاء ـ المغرب ١٩٧٦ م.
* محمد الجوادی: أدباء التنوير والتاريخ الإسلامی ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ ١٩٩٥ م
* محمد طنطاوی: فلسفة الجمال الداخلی (بين الدين والأدب) ـ المركز المصری العربی ـ القاهرة ـ ١٩٩٢ م.
* محمد فوزی جاب الله: التطور وأصل الإنسان من منظور إسلامی ـ المطبعة العالمية ـ ش ضريح سعد ـ القاهرة ـ ١٩٩٢ م.
* محمد كامل حسين: وحدة المعرفة ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة . (١٩٧٤).
* محمود إسماعيل: فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية ـ مكتبة مدبولی ـ القاهرة ـ ٢٠٠٥ م.

● مصطفى عوض: الانتخاب الطبيعى - رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - ١٩٨٠ م.

● موريس بوكاى: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم - ترجمة من الفرنسية - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٩ م.

● ول ديورانت: قصة الحضارة (الشرق الأقصى - الصين) - محمد بدران (ترجمة) - الجزء الرابع - (لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة) - ١٩٥٧.

ـــــــ : قصة الحضارة (الحضارة الرومانية) - محمد بدران (ترجمة -) - الجزء الثالث من المجلد الثالث - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٥م

ـــــــ : قصة الحضارة (حياة اليونان) - محمد بدران (ترجمة) - الجزء الثانى من المجلد الثانى - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٣ م.

ـــــــ : قصة الحضارة (الهند وجيرانها) - زكى نجيب محمود (ترجمة): الجزء الثالث من المجلد الأول - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٧ م.

* * *

ثانياً: المراجع الأجنبية

-Aguirre E

Facts, Dates and theory on the origin of modern humans.
Journal Human Ecology , vol.4:3-36,1994.

- Ashley Montague, MF.

An Introduction to Physical Anthropology .
Charles C. Thomas , Springfield, ILLINOIS,1945.

- Beals,R.L,and Haijer,H

An Introduction to Anthropology
Second Ed ,MacMillan Co,New york, 1964

-Cavalli- sforza,L.L and Bodmer, W.E.

The genetics of human populations
Freeman publ. Co, San Francisco , 1971.

-Charles Darwin

The origin of Species.
6 th ed. The ed. With Introduction by Sir Gavin de Beer
The World's Classics, oxford,1956.

-Chomsky,N.
Knowledge of language : its nature,origin and use.
Greenwood press, 1986.
-Chomsky, N.
Language and mind.
Cambridge Univ. Press,1972
-Coon,C.s, Garn,S.M.,Birdsell,J.B.
Races ,A study of the proplems of race formation .
Charles C. Thomas, Springfield,Illinois,1955.
-Downs,JF,Bleibtrau,H.F.
Human Variations-An Introduction to Physical Anthropology.
Benziger Bruce and Glencoe, Inc.,Toronto, Canada, 1972.
-Hoijer,H
The nature of language .
In: Exploring the ways of mankind .Goldschmidt, W.(ed) Holt , Rinehart and Watson Inc .N.Y.1977.
-Hubbard, J.
The biological basis of mental Activity .
Addison Wesley publ., Massachussets, California, London, Amsterdam, Ontario, Sydney, 1984.
-Hewes, G.
Primate Communication and the gestural origin of Language .
Current Anthropology,14:24,1973.
-Kohen,D.E.
DNA evoluation data and its relevance to mammalian Phylogeny. In: Molecular Anthropology ,Goodman ,M.and Tashiany, R.(eds.)
Plenum Press, New york.1976.
-Lasker,G.W.
The evolution of man.
Wayne State University Press,Michigan,1965
-Le Vien ,R.A.
Culture, Behavior and personality.
Second Edition,Aldine Publishing company, New York 1982.
-Nestruch,M.
The origin of man
Progress Publishers, Moscow ,1967.

-Smith,F.H and Spencer,F .(eds.)
The origin of modern Humans.
Alan R.Liss Public, New York, 1984.
-Sims,A. and Hume,W.
Lecture notes on behavioral sciences .
Blackwell Scientific Public, oxford, London.1984.
-Stern,C.
Principles of human genetics.
W.H. Freeman and Co,San Francisco ,1973.
-The Encyclopedia Americana.
InLedt., Vol. 9,27, Grolier Inc., Connecticut,
U.S.A. 1983.
-Tobias, P.V.(ed.)
Hominid Evoluation:Past, Present and future.
Alan R. Liss Public, New York, 1985 .
-Torsten Malmberg
Human Territoriality
Mouten Publ . The Hague. Paris,new York,1980.
-Trinkaus, E.(ed.)
The emergence of modern humans.
Cambridge University Press, Cambridge. 1989.
-Vital Statistics of the united States
National Centre for Health Statistics
Hyattsville, Maryland, 1984
-Whorf, B.H.
Language, thought and reality.
In exploring ways of mankind. Goldschmidt, W (ed.) Holt, Rinehart and Winston, Inc.N.Y.1971.
-Wilson, E.O.
Sociobiology: The new syntheses.
Harvard University Press, Massachusettes, U.S.A., 1975 .

المؤلف فى سطور

* دكتور على عبد العزيز النفيلى، أستاذ الأنثربولوچيا بالمركز القومى للبحوث - جمهورية مصر العربية.
* أول عربى حصل على درجة دكتور فى العلوم (D.S c) من موسكو - ١٩٦٦م.
* عضو مؤسس وأمين عام الجمعية المصرية لعلوم الأنثروبولوچيا البيولوچية.
* عضو منتخب لمجلس إدارة الجمعية الأوروبية للأنثروبولوچيا.
* عضو فى العديد من الجمعيات العلمية المحلية والدولية.
* أسس مدرسة علمية، وأشرف على ثمان عشرة رسالة دكتوراة، وسبع وعشرين رسالة ماچستير.
* له عدة مؤلفات، وأكثر من مائة بحث منشورة فى الدوريات العلمية المتخصصة، المحلية والأجنبية.
* أستاذ زائر ومحاضر فى العديد من الجامعات فى أوروبا وأمريكا واليابان.
* حائز على جائزتى التفوق والتقدير العلمى من المركز القومى للبحوث.

Contents

Aly El-Nofely

PROGRESS and REGRESS

between Diversity of Humans and variation of cultures

أسرار التقدم والتأخر

بين تنوع البشر واختلاف الثقافات

- يثير هذا الكتاب الصغير أسئلة كثيرة عن قضية كبيرة ..
- ما هى أسباب تقدم بعض الأمم وتأخر بعضها الآخر؟
- يرى كثير من الناس أن التقدم هو مجرد التقدم العلمى والتكنولوجى، وحجم الاقتصاد. والقوى العسكرية والسياسية والمالية والإعلامية..
- .وذلك فى الحقيقة أقرب للهيمنة من التقدم، وهذا هو موضوع كتاب مستقبلى للمؤلف.
- هل هناك فروق فى الجينات أو القدرات العقلية..؟ أو هناك أعراق عليا وأخرى سفلى؟.. مما قد يبرر تسلط الأقوى والأصلح على الأضعف... أو أن هناك شعوبًا مختارة، ومن ثم شعوب مستبعدة... وبالتالى فهى مستباحة، وتستحق أن تصير مستعبدة... سواء كان ذلك على أساس داروينى أو أساس مقدس؟ أو مزيج منهما؟
- أم أن تقدم الإنسانية العلمى هو عملية تراكمية... ساهمت فيها مختلف أمم العالم بأنصبة متفاوتة على مدار التاريخ الإنسانى، تداولت الأمم فيها الاستفادة القصوى، كلَ منها فى أيامها؟
- هل تضافرت ثروات العالم الجديد «أمريكا». من مناجم فضة وذهب ومعادن، إلى غابات وأراض زراعيه خصبة، وماشية وأسماك وطيور... وما إلى ذلك. مع العمالة المجانية. من تسخير السكان الأصليين حتى حتفهم، ثم استرقاق الأفارقة ليكملوا عمل الموتى. مع الثورة العسكرية (وهو عنوان لدراسة هامة نشرتها دا[ر] كمبريدج) فى ترسيخ التقدم / الهيمنة الغربية، فى لحظة تاريخية من عم[ر] الإنسانية؟

عادل المعلم

